مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter

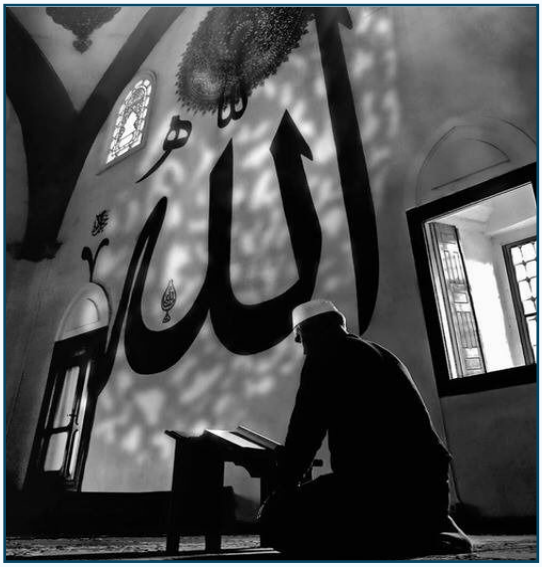

القراءة الجديدة للقصة القرآنية

من منظور محمد عابد الجابري

دراسة تحليلية نقدية تكميلية

محمد كنفودي

القراءة الجديدة للقصة القرآنية

القراءة الجديدة للقصة القرآنية

من منظور محمد عابد الجابري

دراسة تحليلية نقدية تكميلية

محمد كنفودي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تسهيم	**٧**
تمهيد	**٩**
أولًا: القصص القرآني ومنهج الدراسة والفهم	١١
١- منهج الدراسة علىٰ وجه الإجمال	١١
٢- منهج الدراسة علىٰ وجه التفصيل	١٢
٢- القصص القرآني تاريخٌ وعبرٌ	١٥
٣- القصص القرآني تحذير وبرهان	١٧
٤- القصص القرآني تصنيف وتحقيب	١٩
ملاحظات نقدية وتكميلية	**٢٣**
أولا: ملاحظات نقدية-تقويمية	٢٣
١- مرويات أسباب النزول وإمكانية إعادة ترتيب آيات التنزيل الحكيم حسب ترتيب النزول	٢٣
٢- القصص القرآني بين ترتيب النزول والمعهود العربي زمن النزول	٢٧
ثانيًا: ملاحظات تطويرية-تكميلية	٣٣
* النقد البناء والنقد التهديمي-التقويضي	٣٣
ملاحظات نقدية وتكميلية	**٤١**
أولا: ملاحظات نقدية - تقويمية	٤١
* الإيمان بالغيب (الآخرة) وعلاقته بالعقل (التأويل)	٤١
المجموعة الثانية من النصوص القرآنية التي تتناول بعضًا من صور التنعيم الأخروي لأهل الجنة	٤٩

المجموعة الثالثة من النصوص القرآنية التي تتناول بعضًا من صور التعذيب الأخروي لأهل النار ٥٢
أ- من صور التعذيب المادي ٥٢
ثانيا : ملاحظات تكميلية-تطويرية ٦٣
١- ما معنىٰ أن يكون المرء عقلانيًا ٦٣
٢- ما معنىٰ أن يكون المرء قرآنيًا ٦٩

تسهيم

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

يقول محمد عابد الجابري: «**وبما أن الهدف من القصص القرآني هو ضرب المثل واستخلاص العبرة، فلا معنىٰ لطرح مسألة الحقيقة التاريخية. إن الحقيقة التاريخية التي يطرحها القصص القرآني هي العبرة، هي الدرس الذي يجب استخلاصه، نعم إن القصص القرآني ليس قصصًا خياليًّا، بل هو قصص يتحدث عن وقائع تاريخية تدخل ضمن معهود العرب، إذ لم يكن العرب أعرابًا (أميين) كلهم، بل كان منهم يهود ونصارىٰ في مكة ويثرب وشمال الجزيرة العربية وشرقها وغربها، وكان منهم (خبراء) في الأنساب و(متخصصون) في القصص... ذلك كله كان يدخل ضمن معهود العرب الثقافي والفكري، إضافة إلىٰ قصص عاد وثمود وأقوام آخرين ممن لم يرد ذكرهم في التوراة**». مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ج١، في التعريف بالقرآن، دار النشر، الدار البيضاء المغرب، ط١، ٢٠٠٦، ص ٢٥٩.

تمهيد

نتناول في هذا المقال دراسة الدلالة الجابرية لدال القصة القرآنية[1]، من خلال متنه المدروس، بعيدًا عن أي مسبقات مهما قلّ أو جلّ شأنها. إذ شرطنا في هذه الدراسات القرآنية المقدمة تباعًا الذي نلتزم به، هو التوسل بالقراءة الداخلية/الموضوعية السياقية النصية، التي تقتفي التصورات للمتن الجابري المقروء، لرصد ما هو مفيد نافع للبناء عليه وتطويره، وكذا ما هو ضار وعائق لتجنبه وعدم تكرار أعطابه؛ ذلك أن المعرفة البشرية قائمة علىٰ ذلك[2]، فضلًا عن أن الإبداع أو القفزة النوعية المشهودة، لا تتحقق ماهيتها إلا من خلال التراكم منهجًا ومضمونًا.

---

(١) - يدعو الله في التنزيل الحكيم إلىٰ استخدام النظر العقلي (التفكير)، في القصص القرآني، قصد الاعتبار والاستلهام. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وتلاحظ استخدام الفعل (يتفكرون)، بدل الاسم (الفكر)؛ للدلالة علىٰ أن النظر في القصص القرآني تعين أن يكون دومًا. إلا أن حصيلة النظر إن راعت خصوصية النص القرآني عمومًا، والمتعلقة بالقصص القرآني خصوصًا، عدت موضوعية، وإلا كانت من باب القول بالتشهي والتقليد، وخصوصيته علىٰ مستوىٰ القصص سيتم توضيحها في جانب الملاحظات التكميلية الآتية، ولذلك كان وما يزال يلقىٰ اهتمامًا بالغًا من قبل الدارسين، إلا أنه يلاحظ علىٰ مُجمل الدراسات المقدمة ملاحظتين: الأولىٰ متعلقة بمنهجية النظر، والثانية متعلقة بالحصيلة المتوصل إليها، وسنتعرف علىٰ ذلك أكثر في الهوامش الآتية.

(٢) - لا يمكن للمعرفة الإنسانية في مختلف مجالاتها، أن تتطور إلا من خلال ذلك، وهو أمر ملاحظ في شتىٰ الإنجازات العلمية والمعرفية، ويمكن عده كما يقول بنسالم حميش، «الخميرة الصالحة لكل ثقافة ترغب في الحياة»، وإلا دخلنا في «هوس العظمة أو الميغالومانيا». فلسفة الوجود والجدوىٰ نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط١,ن ٢٠٠٤، ص٨, ١٣.

النص القرآني إذا سلكت معه مسلك «قراءة الترتيل»[1]، تسنىٰ لك أن تصنف نصوصه إلىٰ عدة أقسام عامة كالعقدية، التشريعية، الأخلاقية، القصصية... وهي أقسام متداخلة، إن لم تكن متلاحمة؛ ذلك أنها تخاطب الإنسان بالتجريد، والإنسان مداخل إقناعه والتأثير عليه، متجددة ومختلفة ومتنوعة أيضًا، لذا فإن الأساليب القرآنية مهما تعددت، فإنها تصب في شيء واحد، هو الإنسان بالتجريد، وليس فقط إنسان «زمن النزول»، كما يتوهم ذلك ويلوك من يعتبر «**أن النص القرآني إنما أنزل بالمعهود العربي زمن النزول**»، فهم بذلك، كما ذكرنا مرارًا، يصادرون أهم خصيصة من خصائصه، وهي «**مفرادته إفرادًا وتركيبًا واستعمالًا ودلالةً**»، **فضلًا عن «تعاليه المطلق عن كل ما هو تاريخي»**[2].

النصوص القرآنية المتعلقة بالقصص تمت دراستها قديمًا وحديثًا من زوايا نظر مختلفة، وفي هذا السياق لا يهمنا علىٰ الأقل الآن، أن نرصد تلك الزوايا مع العمل علىٰ تقويمها[3]، بل سنعمل علىٰ رسم المعالم العامة

---

(١) - قراءة الترتيل، هي المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٣]. وقوله أيضًا: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. والمقصود بها: جمع النصوص القرآنية المتعلقة بموضوع محدد، للتوصل إلىٰ الهدي القرآني، أو النظرية القرآنية في الموضوع. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص. ٢٥-١٩٧-١٩٨.

(٢) - تم التنصيص علىٰ الضابط أعلاه منذ الكتابات التأسيسية الأولىٰ للفكر الإسلامي، كالشافعي في الرسالة، مرورًا بالشاطبي في الموافقات، وانتهاءً بمحمد عابد الجابري وغيره اليوم، توهمًا منهم بأنه هو المقصود بوصف الله تعالىٰ للقرآن بكونه «أنزل بلسان عربي مبين». وكما ذكرنا سابقًا، ألَّا علاقة للضابط بالوصف القرآني. ولا شك أن مثل ذلك يعد من باب «التلاعب بدلالات النص القرآني»، كما سنفصل الأمر في الدراسة القادمة المعنونة بـ «**التلاعب بدلالات النصوص والمفاهيم الشرعية في الفكر الإسلامي**».

(٣) - اختلفت آراء المفكرين المعاصرين بشأن مقاربة القصة في القرآن، وذلك مرده إلىٰ اختلاف منهج الدراسة، الذي توسل به كل واحد منهم. فمثلا محمد أركون يؤكد كما رأينا سابقًا في سياق الحديث عن قصص الأنبياء انطلاقًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ ... [هود: ١١٩]. أن القصة هي «**الشكل النموذجي الأمثل للتعبير عن الفكر الأسطوري** ...». الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص ١٣٠١. وأما نصر حامد أبو زيد، فلم يحد كثيرًا عن رأي أركون. النص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط٥,، ٢٠٠٦، ص. ١٠١-١٣٥. وأما محمد شحرور فيرىٰ بأن القصص القرآني، إذا كان مجموعة أحداث إنسانية، تم تسجيلها =

الحاكمة للنظرة الجابرية الجديدة للقصة القرآنية:

أولًا: القصص القرآني ومنهج الدراسة والفهم

١- منهج الدراسة علىٰ وجه الإجمال

يستبعد محمد عابد الجابري أمورًا، لا يتعين أن نقرأ من خلالها القصص القرآني، وهي:

أ- الابتعاد عن الموروث القديم كالإسرائيليات ونحوها.

ب- الابتعاد عن التأويلات المذهبية الإيديولوجية.

ج- الابتعاد عن خصائص أدب القصة في عصرنا[١].

في مقابل ذلك، يستحضر أمورًا تعين أن نقرأ من خلالها القصص القرآني، وهي:

أ- الاعتماد علىٰ ترتيب النزول، بدل ترتيب المصحف.

ب- الاقتصار علىٰ المادة التي يقدمها القرآن دون سواه.

ج- الاعتماد علىٰ التوراة والإنجيل، ما دام أن القرآن مصدق لما بين يديه منهما، خصوصًا علىٰ مستوىٰ القصص[٢].

= وحفظها في «إمام مبين»، فإنها تعكس جدل الإنسان مع الإنسان (الأنبياء) كعلاقات واعية، ومع الطبيعة في المعرفة، وكذا **تطور الإسلام كدين، الذي تجلىٰ في ثلاثة حقول: ١ .تراكم القيم من نوح حتىٰ محمد (ص). .٢ تطور التشريعات من نوح إلىٰ محمد (ص)، ومن المشخص إلىٰ المجرد. ٣ ظهور الشعائر وتطورها أيضا**. القصص القرآني قراءة معاصرة .١ مدخل إلىٰ القصص وقصة آدم، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١,، ٢٠١٠، ص ١٤-١٥-٢١. أما عدنان الرفاعي فيرىٰ أن أي قصة قرآنية تعكس وجهين: وجه حسي تاريخي لأحداث وقعت، ووجه فوق تاريخي متعلق بالعبرة. الحكمة المطلقة نظرية قرآنية في إطلاق النص القرآني، دار الخير، بيروت. لبنان، ط٤,، ٢٠١١، ص. ٢٠. أما السيد قطب فيرىٰ أن القصة القرآنية ناقلة لما كان أو سيكون، باتباع «أسلوب وصفي فني تصويري». التصوير الفني في القرآن، ص.٩, مشاهد القيامة في القرآن، ص.٨, بناءً علىٰ ما سبق يمكن القول: إن القصة في القرآن تقص الحدث كما وقع أو سيقع، لكن بالتركيز علىٰ موطن العبرة. وسنعود إلىٰ هذه الفكرة لاحقًا.

(١) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص ٢٣٩-٢٤٠-٣٩٢.

(٢) - نفسه، ص ٢٣٨-٢٤٢.

٢- منهج الدراسة علىٰ وجه التفصيل[١]

أ- القصة القرآنية لا تفهم موضوعيًّا إلا بمراعاة ترتيب توالي أزمنة النزول

ينطلق الجابري من أن القرآن ككل، والقصص القرآني علىٰ وجه التحديد، لا يمكن أن يفهم موضوعيًا إلا بالتوسل بترتيب النزول، وليس بترتيب المصحف، كما انطلق من تعامل مع القرآن قديمًا وحديثًا، إذ مراعاة ذلك يجعلنا نأخذ بعين الاعتبار «**مسار الدعوة**»، وكذا «**مسار تكوّن القرآن**» بالتساوق؛ بمعنىٰ «**قراءة القرآن بالسيرة وقراءة السيرة بالقرآن**»[٢]. فضلًا عن التعرف علىٰ البناء الداخلي للنص القرآني، وكذا الوقوف علىٰ معالم النظرية القرآنية في الدعوة والتغيير، ولا شك أن هذا القصد علمي وموضوعي في الوقت نفسه، لكنه يحتاج إلىٰ ضوابط علمية وموضوعية لإنجازه، علمًا أن التوسل بأسباب النزول فقط، لا يحقق الهدف لعدة اعتبارات، منها: أن العديد من النصوص القرآنية القصصية، سورًا وآيات، لا سبب نزول لها، وأن مجمل أسباب النزول قد دخلها الوضع والصنعة، فضلًا عن أن أسباب النزول إن عكست شيئًا، فهي تعكس بعض المعهود العربي الثقافي السائد زمن النزول، ولا يتعداه إلىٰ غيره.

تأكيد محمد عابد الجابري علىٰ أسباب النزول دون غيرها كالسياق[٣]، رغم ما قيل في شأنها، لتبرير أن القصص القرآني جاء كاستجابة ربانية «لتسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، والتخفيف عنه وعن أصحابه، وتثبيت إيمانهم ومبادئهم»؛ فكلما اشتد الأذىٰ بهم أنزل الله تعالىٰ قصصًا للأنبياء مع أقوامهم السابقين، يبين من خلالها أن الرسول عليه السلام وأهل دعوته، وإن اشتد عليهم الظرف، فساعة الفرج

---

(١) - سنعمد إلىٰ بسط بعض أسس منهج الدراسة لدىٰ محمد عابد الجابري؛ سواء في جانب الاستبعاد أو الاستحضار.

(٢) - نفسه، ص. ١٤٠. ٢٣٠ فهم القرآن الحكيم، ج١,، ص. ١٥.

(٣) - السياق النصي داخل السور القرآنية كلها توقيفي محض، عكس ترتيب السور داخل المصحف، لذا فإن الفهم الأمثل للنص القرآني القصصي تعين أن يتم باستحضار واستصحاب السياق. أما الاعتماد علىٰ ما سواه، كأسباب النزول واللغة العربية وعلومها، فهي مهما حققت من نِسَب العلمية، تبقىٰ دون ما هو توقيفي، ومن هنا يظهر منزلق محمد عابد الجابري، فهو بدل أن يعتمد علىٰ ما هو توقيفي (السياق)، تجده يعتمد علىٰ ما هو ظني الثبوت (أسباب النزول).

قادمة، وينقلب الظرف. لذلك يرىٰ محمد عابد الجابري أن بعض السور «تحدد الإطار العام للقصص القرآني كسورة الفجر والنجم، حيث تتحدثان عن قصص أهل القرىٰ بإيجاز»، ولكنها ترسم نقط الالتقاء بين ما سبق وما عليه الذين كفروا لتكون النهاية واحدة[1]. عكس بعض السور الأخرىٰ التي تفصل قصص بعض الأنبياء تفصيلًا، كسورة يوسف عليه السلام، أو عدة سور تفصل قصة نبي من الأنبياء كقصة موسىٰ عليه السلام.

وعليه؛ فكلما اسُتحضِرَت أسباب النزول[2]، ومسار السيرة/الدعوة النبوية، كان ذلك أدعىٰ للفهم المرحلي الموضوعي للقصص القرآني.

ب- القصة القرآنية لا تفهم إلا بالاعتماد علىٰ التوراة والإنجيل

بعد أن أكد محمد عابد الجابري علىٰ أن الفهم الأمثل المتجاوز لأخطاء فهم السابقين للقصص القرآني، تعين أن يتم بالاعتماد علىٰ المادة التي يقدمها نص القرآن فقط، ما دام أنه يفسر بعضه بعضًا تكميلًا وتنسيقًا[3]، وبالابتعاد كلية عن الموروث التوراتي والإنجيلي علىٰ حد سواء. تجده بعد ذلك كله، عاد فنقض غزله؛ وذلك يتجلىٰ في تأكيده علىٰ أن القرآن وإن شهد علىٰ العهد القديم/التوراة والعهد الجديد/الإنجيل، بكونهما قد دخلهما التحريف المادي زيادةً ونقصانًا، فإن ذلك حسب زعمه متحقق علىٰ مستوىٰ العقيدة فقط، أما ما عداها فالقرآن مصدق لما بين يديه منهما؛ ذلك أن جل ما يقصه القرآن الحكيم يتوافق مع ما هو

---

(١) - نفسه، ص. ٢٤٥ وما بعدها. النظر إلىٰ القصة القرآنية بوصفها من باب التسلية، يفقدها مغزاها ومبناها. انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص. ٣٢١.

(٢) - تيمة أسباب النزول أدت دورًا أساسيًا في قراءة النص القرآني، إلا أن المتتبع لها في كتب التراث الإسلامي، يلاحظ عليها عدة ملاحظات، منها: ١- رغم أهميتها فإن المصنفات المتعلقة بها قليلة جدًا. ٢-الآية الواحدة تجد لها أحيانًا عدة أسباب للنزول، أو العكس؛ سبب واحد تنزل بشأنه العديد من النصوص القرآنية. ٣- الآية الواحدة تختلف أسباب نزولها بين المفسرين التأسيسين... وإذا كان الأمر كذلك، ندعو إلىٰ إنجاز ما يلي: ١- تنقية أسباب النزول مما علق بها وليس منها. ٢- ما ثبتت صحته من أسباب النزول يستأنس به، علىٰ اعتبار أن المعول عليه هو السياق وحده.

(٣) - إذا كان القرآن يفسر بعضه بعضًا، أو أنه يحمل ما يكفي لأن يقرأ بذاته، وهو حتمًا كذلك. فلماذا تجد التفسير الموروث وبعض أهل القراءات الجديدة، يعتمدون علىٰ ما هو خارجي عن القرآن، ليتم به تفسير القرآن، كأسباب النزول والكلام العربي وعلوم اللغة والموروث القديم والعلوم الخِلقية ...؟!

موجود في التوراة والإنجيل، ما دام أن «**الحقيقة التاريخية في هذا المجال ليست مستقلة بنفسها، بل هي جزء من التاريخ المقدس**»، وهي علاقة حكاية بين اللاحق والسابق، خصوصًا فيما بين الكتب المنزلة، ما دام أن الغرض في الغالب واحد، مستشهدًا بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] (١). أما المختلف فيه بين القرآن وما سبقه من التوراة والإنجيل، فراجع إلىٰ «**طريقة العرض**»، إذ هي في القرآن راعت خصوصيته المتجلية في كونه أنزل بلسان عربي مبين، قصد إفهام المخاطبين به زمن النزول في إطار معهودهم، وهذا هو «**مجال الإبداع والأصالة في القصة القرآنية**»(٢).

بناءً علىٰ ما سبق، كأن القصة القرآنية مجرد مرآة عاكسة لما هو موجود في التوراة والإنجيل. وبالتبع إذا كان الأمر كذلك -وهو حتمًا ليس كذلك- فلا جديد في القصة القرآنية باستثناء الصياغة التعبيرية، ما دام أن المجال القصصي كما يشير المتن الجابري، لم يدخله تحريف لا زيادة ولا نقصانًا. في حين أن المجال الوحيد والأوحد كما هو معروف، الذي بالإمكان أن تعلق به الأساطير والخرافات، هو مجال القصص. خصوصًا إذا عاشت القصة زمنًا طويلًا،

---

(١) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم في التعريف بالقرآن، ص. ٢٤٠-٣٩٢. إذا كان الأمر حسب ما فهم محمد عابد الجابري، فكيف نفهم النصوص القرآنية التي تتحدث عن تصحيح ما وقع لرسل بني إسرائيل وعن عيسىٰ بن مريم عليه السلام، من مثل قوله تعالىٰ بعد أن ذكر قصة عيسىٰ بن مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٣]. وقوله أيضًا بعد أن استهل في ذلك قصة أهل الكهف، وهي من القصص المتأخرة عن زمن عيسىٰ عليه السلام: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]. وعليه؛ يبقىٰ ما يصححه القرآن هو الغالب في مقابل ما يصدقه. الآية أعلاه تنهىٰ، كما يقول القاضي عبد الجبار، الرسول أن يشك فيما أنزل عليه. تنزيه القرآن عن المطاعن، ص.٢٠٩, ويمكن القول أيضًا، أن الآية تنفي أن يقع من الرسول عليه السلام شك؛ والمعنىٰ إنك لن ولم تشك. أما إذا قلنا بأن الآية تخبر عن شك الرسول عليه السلام، وتأمره للخروج منه بسؤال أهل الكتاب. والقرآن نص علىٰ أن كتبهم محرفة، فكيف إذًا نزيل الشك بغير اليقين؟!

(٢) - نفسه. الأصالة والإبداع في القصة القرآنية لا ترجع إلىٰ الصياغة فحسب، بل ترجع وهذا هو المهم فيها، إلىٰ أنها بقدر ما تشير إلىٰ حقائق (الحق) تاريخية واقعية في زمكان محدد، بقدر ما تتعالىٰ عنه لتشكل نظامًا دلاليًّا خاصًا من الحكم والعبر المتوافقة مع مطلق الزمكان. انظر: الحكمة المطلقة، عدنان الرفاعي، ص. ١٧ وما بعدها. ص. ٨٥ وما بعدها.

وصاحبت عدة أجيال متعاقبين؛ وبذلك يكون محمد عابد الجابري قائلًا كما قال غيره بـ «**التناص**»، إن لم يكن قائلا بـ «**التسوية النصية بين التوراة والإنجيل والقرآن**»[1].

٢- القصص القرآني تاريخٌ وعبرٌ

أ- القصص القرآني تاريخ

اختلفت إجابات الباحثين والدارسين المتعلقة بالقصة القرآنية، هل هي واقعية حقيقة[2] (محمد شحرور، عدنان الرفاعي . . .)، أم هي أسطورية وهمية (محمد أركون، نصر حامد أبو زيد . . .)؟ وكل واحد يعزز إجابته بادعاءات أو أدلة يراها كفيلة بتعزيز ما يراه. لكن نحن في هذا السياق لا يهمنا دراستها وتتبعها وترجيح بعضها علىٰ بعض، بل ما يهمنا حصرًا، هو بيان علاقة القصة القرآنية بالتاريخ الإنساني في التصور الجابري.

يرىٰ محمد عابد الجابري أن مكمن الحقيقة في القصص القرآني، لا يكون إلا في شيء واحد ووحيد هو «العبرة»؛ إذ كلما أفادت القصة القرآنية عبرة فهي حقيقية، وإلا فوهمية أو أسطورية. والصدق فيها لا يبحث عنه في مطابقة أو عدم مطابقة ما يرد فيها من أحداث وأشخاص للواقع التاريخي، بل «مرجعه إلىٰ خيال المستمع ومعهوده»؛ فإذا انفعل بها المستمع، فهي صادقة حقًا وحقيقة[3]، أما صدقها في ذاتيتها أو إنيتها فلا يكون موضوع سؤال؛ لأن «**القصة القرآنية لا علاقة لها بالتاريخ بالمعنىٰ المعاصر**»، بل هي تنتمي إلىٰ ما سماه بـ «**التاريخ المقدس**».

---

(١) - الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢١٣. من القائلين بـ «التسوية» أيضا محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص. ٣٢-٣٣. أما من القائلين بـ «التناص»: نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، ص. ١٠١.

(٢) - القرآن في سياق حديثه عن القصص يستعمل مفردة «الحق»، ليظهر القصص في بعده الحقيقي، ويبعده عن الخرافات والأوهام والأساطير، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٩٩]. [القصص: ٤٨]. [الكهف: ١٣]. [مريم: ٣٣].

(٣) - يرىٰ باحثان معاصران أن التصور الجابري أعلاه، مبني علىٰ نظرية الشعر عند أرسطو. الشبه الاستشراقية، ص ٢٦٢.

وعليه؛ فإن من شروط صحة القصة القرآنية، هي أن تحمل عبرة مؤثرة في المتلقي، فضلًا عن أنها تراعي المعهود العربي وقت النزول، إذ كما يرىٰ محمد عابد الجابري أنه «كان من بين العرب زمن النزول خبراء في الأنساب ومختصون في القصص، بالإضافة إلىٰ أن العديد من قصص السابقين كانت متداولة بين العرب وقتئذ»[1]. بالمقارنة مع ما سلف، ينص علىٰ أن آيات القصص بقدر ما تلقي الضوء علىٰ جانب هام من «محيط الدعوة المحمدية»، بقدر ما تجعل من القرآن «خطابًا جدليا أبديا موجها إلىٰ خصوم الدعوة». فهو إذا بمثابة مرآة «ترىٰ فيها الدعوة نفسها، حاضرها ومستقبلها». بناءً عليه؛ فهي تعكس وجهًا هامًا من الأحداث التاريخية؛ سواء زمن النزول أو زمن الأنبياء السابقين[2]. وتبقىٰ القصة القرآنية ذات وجهين: وجه تاريخي متحيز، ووجه متعالٍ فوق تاريخي ينطبق علىٰ كلية التاريخ الإنساني[3].

ب- القصص القرآني عِبَر

«العبرة» هي أساس الحُكم علىٰ القصة القرآنية بالحق والصدق، فإذا حملت آيات القصص عبرًا متعددة حسب مجالات حركة الإنسان، فهي بالتبع حقيقية.

---

(١) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢٣٨-.٢٣٩ العديد من القصص التي أوردها الله في القرآن، كان العرب وقت النزول يعرفونها ويتداولونها بشكل من الأشكال قصد السمر، خصوصًا إذا استحضرنا الظرف العام وقتئذ. وقد ذكر كاتب معاصر العديد من الأبيات الشعرية قبل النزول تشير إلىٰ ذلك. تجليات الأسطورة قصة يوسف بين النص الأسطوري والنص الديني، داود سليمان الشويلي، العراق، ٢٠٠٥، ص ٥. ولذلك كانوا يصفون القصص القرآني بـ «أساطير الأولين»؛ بوصفها حكايات تخالف ما عندهم، أو هي حكايات لا نظام ولا حقيقة ولا واقع لها، وقد وردت في التنزيل تسع مرات. منها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله أيضا: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٦]. إلا أن القصص القرآني كان ينزل حسب ما يسهم في تنشئة المجتمع الذي يريد القرآن بناءه، ويطرح منه ما هو زائد علىٰ ذلك. إلا أن تلك الزوائد كما يقول باحث معاصر، عادت مرة أخرىٰ علىٰ أيدي المفسرين المولعين بالحكايات الخرافية والأسطورية، ما دام أن القصص القرآني، حسب زعمه يحتوي علىٰ فجوات في حاجة إلىٰ ملءٍ. نفسه، ص ٧. أو أن القصص القرآني كان ينزل بحسب ما يخدم الدعوة؛ بوصفه من وسائلها. مدخل علىٰ القرآن الكريم، ص. ٣٩٢. التصوير الفني في القرآن، ص. ١٥٥ وما بعدها.

(٢) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢٣٧.

(٣) - الحكمة المطلقة، عدنان الرفاعي، ص٢٠.

من هذا الباب عدّ محمد عابد الجابري القصص القرآني «من باب ضرب المثل»، الذي جاء في سياق خدمة الدعوة، ويورد بمقدار وبكيفيات محددة ومتوالية، حسب ما يتناسب مع حاجة الدعوة إلىٰ ذلك، وتقدمها في الزمن ونوعية الخصوم التي تواجههم؛ سواء من أهل الشرك في مكة، أو من أهل الكتاب في المدينة. وبالتبع فإن القصص القرآني يتطور طولًا وقصرًا وشدة تخويف، بالتزامن مع تطور الدعوة المحمدية. من هذه الزاوية عد محمد عابد الجابري «حاضر القصص القرآني، هو نفسه حاضر الدعوة المحمدية، منظورًا إليه من خلال كفاح الأنبياء من أجل التبليغ»، إذ كلما استمر الذي كفر في التكذيب والمعاندة، بيّن الله ما أصاب نظيره وشبيهه من الأقوام الماضية، التي كفرت وكذبت الرسل السابقين وناصبتهم العداء وجيشت عليهم الناس، وهذا كما يرىٰ الجابري «من باب التسلية والتثبيت»، بأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- والذين آمنوا معه منتصرون حقيقة في نهاية الأمر، وذلك كله «من باب القياس والاعتبار»[1]. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. ويقول أيضا: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. فالقصص القرآني من هذا الباب ليس مجرد إخبار عما سلف من الأيام، بل هو خطاب غير مباشر إلىٰ الذين كفروا، ودعوة للتأمل والتبصر والاستبصار، لذلك أكثر الله من القصص ونوّعه ليكون أدعىٰ للوقوف والنظر.

٣- القصص القرآني تحذير وبرهان

أ- القصص القرآني تحذير

واجه الرسول عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا به، تكذيبًا وعنادًا وإلحاق الأذىٰ بصور عديدة لا حصر لها، خصوصًا في المرحلة المكية كما جاءت بذلك الأخبار[2]. وتكذيب المكذب كان يشتد ويقوىٰ خصوصًا عندما يظهر للمكذبين ما

---

(١) - نفسه، ص. ٢٤١-٢٤٦. يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. ويقول أيضا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

(٢) - انظر: سيرة ابن هشام، تهذيب، عبد السلام محمد هارون، مكتبة السنة، القاهرة. مصر، ط٦، ص ٧٥ وما بعدها.

يدل علىٰ صحة وصدق رسالة محمد ﷺ وما جاء به[1]. وتحذير مكذبي الدعوة كان يتم بأسلوب غير مباشر، من خلال ما يقصه تعالىٰ من قصص السابقين، ولم يكن الهدف من ذلك هو فقط إبعادهم عن إلحاق الأذىٰ بالرسول عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا به، بل أيضًا وسيلة من وسائل الدعوة. وليتم ذلك كان القصص القرآني يركز علىٰ النتائج الوخيمة للتكذيب والمكذبين، وخصوصًا «قصص أهل القرىٰ التي تدخل ضمن المعهود العربي وقت النزول»، والتي كما ينص الجابري كانوا علىٰ «معرفة بهم»[2].

ب- القصص القرآني برهان

المبعوث من قبل الله تعالىٰ يؤيده الله تعالىٰ بما شاء من الوسائل، ليبين ويبرهن علىٰ صحة وصدق دعوته وما جاء به كشأن موسىٰ وعيسىٰ ونوح عليهم السلام. أما محمد عليه الصلاة والسلام[3]، فقد اعتمد من بين ما اعتمد عليه، القصص القرآني الموافق كما ينص محمد عابد الجابري «للمعهود العربي زمن النزول». وقد أورده الله تعالىٰ ليس بوصفه مجرد أخبار وحكايات، كما هو الشأن عند الإخباريين، بل هو «برهان وبيان» ووسيلة للإقناع لتوسيع قاعدة «**الدعوة المحمدية**»[4]، والكف عن التعذيب والأذىٰ. وذلك كله يتم من خلال «**الاحتكام**

---

(١) - ذلك موقف يعكس اعتقاد الجاحد، إما تعصبًا دينيًّا أو قبليًّا أو تقليدًا أو اتباعًا للأهواء، وهذا ما أشار إليه الله تعالىٰ بعد أن ذكر قصة موسىٰ عليه السلام: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

(٢) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢٤٥. المقصود بقصص أهل القرىٰ: قصة عاد وثمود، التي وردت في سورة الفجر (١٠)، سورة النجم (١١)، سورة الشمس (٢٦)، سورة القلم (٣٥)، سورة ق (٣٣)، وسورة ص (٣٨). نفسه، ص. ٢٤٥ وما بعدها.

(٣) - أكد جورج طرابيشي أن الرسول -عليه السلام- هو «نبي بلا معجزة ما عدا القرآن»، بدليل وجود العديد من الآيات، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. إلا أنه في المقابل، تجد أن معجزات الرسول ﷺ، كلما استمر الزمن كلما تضخمت، ابتداءً من سيرة ابن هشام وصولا إلىٰ السيرة الحلبية؛ سواء علىٰ المستوىٰ السني، أو الشيعي علىٰ حد سواء. انظر: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط٢, ٢٠١١.

(٤) - تتكرر عبارة «**الدعوة المحمدية**» كثيرًا في المتن الجابري المتعلق بقراءة التنزيل الحكيم. لكن هل المقصود بها جعل الدعوة المحمدية مثلها مثل الدعوات التاريخية، أم هو تقليد استشراقي مستورد . . .؟!

إلىٰ العقل، بعيدًا عن أساليب اللاعقل»[1]. ولترسيخ ذلك، يلاحظ القارئ لكتاب الله تعالىٰ، أن العديد من القصص القرآني يتكرر قصرًا وطولًا علىٰ طول النص القرآني، مرد ذلك فضلًا عما سبق، كما يرىٰ محمد عابد الجابري إلىٰ «**أن المضمون واحد، أما الصياغة التعبيرية للقصة فهي التي تتكرر، حسب مبدأ لكل مقام مقال، فالمقام هو المتحرك، أما المقال فثابت»**[2].

٤- القصص القرآني تصنيف وتحقيب

تتبع القصص القرآني حسب ترتيب النزول، يجعل الباحث يُلاحظ تطور القصص القرآني طولًا وشدة، بالتزامن مع تطور «**الدعوة المحمدية**». بناءً عليه؛ قسم محمد عابد الجابري القصص القرآني إلىٰ ثلاثة أصناف:

الصنف الأول يتوخىٰ توجيه نظر مشركي مكة إلىٰ المصير الذي آلت إليه الأقوام المكذبة بالرسل السابقين، وهذا الصنف يقتصر علىٰ قصص أهل القرىٰ، والقصد من ذلك الدعوة إلىٰ الاعتبار.

الصنف الثاني يهتم بالثناء علىٰ الأنبياء والرسل السابقين والتنويه بما قاموا به، وإبراز ما خصهم الله به، وهذا الصنف يقتصر علىٰ أنبياء بني إسرائيل، والقصد من ذلك بيان بعض أوجه العناية الإلهية المحتفة بالرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) - يقول محمد عابد الجابري: «**القرآن الكريم لم يشد بشيء آخر إشادته بالعقل... والحق أن ما يميز الإسلام، رسولًا وكتابًا، عن غيره من الديانات، هو خلوه من ثقل الأسرار**» (الأساطير). مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٣٩٧-٤٠١. وهذا عكس ما يدعيه محمد أركون. الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص ٢١١.

(٢) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢٤٠-٢٦٩. البرهان المحمول في القصص القرآني يقوم علىٰ ما هو خارج عنه، أي علىٰ ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. نفسه، ص. ٢٤٢.
القصة القرآنية المكررة لا تنضبط بالمبدأ أعلاه، إذ هي في القرآن كلما تكررت أفادت جديدًا غير مذكور فيما سبق، وإلا لا داعي إلىٰ التكرار. فمثلًا قصة موسىٰ عليه السلام التي تكررت كثيرًا، عندما تقارن بين ما ورد بشأنها في سورة طه وسورة القصص، أو سورة الشعراء وسورة الأعراف؛ سواء باتباع ترتيب النزول أو المصحف، تلاحظ الفرق جليًا.

الصنف الثالث فهو متعلق بالجدل مع اليهود والنصارىٰ، خصوصًا حول بعض تصوراتهم العقدية، كتصورهم لله تعالىٰ وللأنبياء، كعزير وعيسىٰ... والقصد من ذلك التصحيح وبيان التحريف الطارئ.

وعليه؛ فإن الصنف الأول والثاني متعلقين بالعهد المكي، أما الثالث فهو مرتبط بالعهد المدني. والتقسيم جاء متماشيًا مع التقسيم العام الذي اختاره الجابري لمراحل التنزيل الحكيم[(١)].

بعدما أُنهِيَ تناول التصور الجابري للقصة القرآنية، نجمل أهم ما توصل إليه العرض فيما يلي:

١- القصة القرآنية لا تفهم موضوعيًا إلا من خلال ثلاثة ضوابط هي:

أ- الاعتماد علىٰ ترتيب النزول، الذي يتأسس علىٰ مرويات أسباب النزول. علمًا أن أغلب مرويات أسباب النزول هي من «الموضوع»، فضلًا عن أن الترتيب محمد عابد الجابري للعديد من الآيات والسور كان يقوم علىٰ مجرد «التخمين» ليس إلا.

ب- الاعتماد علىٰ مرويات الموروث القديم، الذي ينتمي إلىٰ ما سماه محمد أركون بـ «التراث الحي المشترك بين أصحاب الظاهرات الدينية» المنزلة تحديدًا[(٢)]، بدليل أن القرآن في مجال القصص مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل. [آل عمران: ٢] [المائدة: ٥٠].

ج- الانطلاق من مرويات المعهود العربي زمن النزول ثقافة وحضارة، بدليل أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين. [الشعراء: ١٩٥] [الزمر: ٢٧].

٢- القصة القرآنية لا علاقة لها بالتاريخ. وبالتبع لا يمكن القول أهي حقيقية أم وهمية خيالية أسطورية، وإنما علاقتها بالعبرة فقط[(٣)]. فكلما أفادت

---

(١) - نفسه، ص. ٢٤١.

(٢) - العلمنة والدين الإسلام المسيحية الغرب، محمد أركون، ت. هاشم صالح، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١,، ١٩٩٠، ص. ٢٢.

(٣) - يقول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]. وقوله أيضًا: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. والاعتبار كما يقول ابن رشد: «**ليس أكثر من استنباط المجهول من** =

عبرة أو عبرًا في ضوء المعهود العربي، فهي صحيحة صادقة وإلا فلا. وما دام أن القصص القرآني واكب تطور الدعوة المحمدية، فهو بالضرورة حامل لها.

٣- القصة القرآنية لا علاقة لها أيضا بمجرد «الحكي»، بل هي خطاب ذو وجهين: تحذير وبرهان، إذ هي من الآيات الدالة علىٰ صحة وصدق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام[١].

= المعلوم واستخراجه منه». «وهذا نص علىٰ وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معًا». فصل المقال، ص. ٢٢-٢٣.

(١) - يقع الجابري كثيرًا في شراك التناقض الجلي الصريح، ومن أوجه ذلك:

* إذا كان القصص القرآني يتلاحم مع المعهود العربي زمن النزول، فما وجه كونه دليلًا وبرهانًا علىٰ صحة وصدق ما جاء به الرسول. إذ وجه كونه دليلًا أن يكون غير معهود لزمن الدعوة؟! سنعود إلىٰ هذا الإشكال في الملاحظة النقدية الآتية.

* مرة يستبعد الاعتماد علىٰ مرويات الموروث القديم، وتارة أخرىٰ يعتمد عليه، بدليل أن القرآن جاء مصدقًا له. انظر: مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢٦٥-٢٦٦.

* مرة ينفي أن يكون القصص القرآني له علاقة بالواقع التاريخي. نفسه، ص .٢٣٨ وتارة أخرىٰ يثبت «**إن القصص القرآني ليس قصصًا خياليًا، بل هو قصص يتحدث عن وقائع تاريخية تدخل ضمن معهود العرب ...**». نفسه، ص ٢٣٩.

هذه التناقضات الجابرية يجد فيها المولع بالنقد التنقيصي التزهيدي، مداخل موضوعية للحكم علىٰ الفهم الجابري الجديد، بكونه لا يعدو أن يكون معلمًا من معالم الجهل والافتراء. رد افتراءات الجابري، ص. ١٩٧-.٢٠٠ أو ترويجًا للشبهات الاستشراقية. الشبه الاستشراقية، ص ٥١-٢١٤.

ملاحظات نقدية وتكميلية

أولا: ملاحظات نقدية-تقويمية

١- مرويات أسباب النزول وإمكانية إعادة ترتيب آيات التنزيل الحكيم حسب ترتيب النزول

اعتماد منهجية التفسير الموروث علىٰ مرويات أسباب النزول، كان من باب «**الاستعانة بما هو خارجي مُحمل**»[١]، لتفسير نص من نصوص القرآن، مع علمهم بأن أغلب النصوص أنزلت لغير سبب، وكانت عندهم علاقة السبب بالآية محكومة بالقاعدة التالية: «**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**»؛ بمعنىٰ أن السبب (الذي قد يكون سؤالًا، أو حادثة، أو فعلا . . .) لا يستغرق النص النازل استغراقًا كليًّا. ورغم أهمية أسباب النزول في منهجية التفسير، إلا أنه يلاحظ ندرة المصنفات في المجال، باستثناء ما كتبه التوحيدي والسيوطي[٢].

أما اعتماد محمد عابد الجابري علىٰ أسباب النزول، فكان من أجل التوسل بها لإعادة ترتيب آيات التنزيل الحكيم، إذ سيتم التعامل مع القرآن بوصفه «**خطابًا شفهيًا، لا نصًا مكتوبًا**»[٣]. والاعتماد الجابري يتأطر في ضوء ما يلي:

---

(١) - فُسِّرَ القرآن قديمًا وحديثًا في ضوء منهجية قائمة بالأساس علىٰ ما هو «خارجي محمل»، كأسباب النزول والموروث القديم وقوانين علوم الآلة التي قد يظن بأنها داخلية، لكنها حقيقة خارجية، إذ قد صيغت في ضوء نصوص عربية غير قرآنية.

(٢) - انظر تحديد ماهية أسباب النزول، في: أصول التفسير، ابن تيمية، ص. ٥٢- ٧١.

(٣) - التعامل مع القرآن بوصفه «خطابًا» بدل كونه «نصًا»، تجده عند كل من: محمد أركون (إعادة كتابة النص القرآني)، ونصر حامد أبو زيد (قراءته بوصفه خطابًا)، وكذا عند محمد عابد الجابري (إعادة ترتيبه).

أ- رغم كل ما قيل حول تيمة أسباب النزول، بوصفها قد دخلها الوضع والصنعة، فإن لها أهمية لا تنكر، تتجلىٰ في:

* أن من خلالها سنتمكن من «**إقامة التطابق بين نزول القرآن والسيرة النبوية**»[١].

* أنها تعكس «**عناصر مهمة من المعهود العربي**»، فهي أوْلىٰ «**من الشعر العربي والقصص والموروث الأدبي بشكل عام**»[٢].

ب- سبب نزول آية من آيات التنزيل الحكيم أو أكثر، هو «**مجرد مناسبة لا علة في وجود المسبب**»؛ بمعنىٰ أن النص القرآني له وجود خاص حقيقي مستقل عن السبب، الذي قيل إنه نزل بسببه[٣].

ج- أن من خلال الاعتماد علىٰ أسباب النزول سنجعل القرآن «**معاصرًا لنفسه**»، بما وقع في زمنه لا قبل ولا بعد[٤].

د- أن أسباب النزول تفرض علىٰ الباحث لسببين:

* أن القرآن الحكيم لم ينزل دفعةً واحدةً، بل نزل طيلة مدة (٢٣ سنة). مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما نزل ابتداءً موجود وهو الغالب.

* أن مرويات أسباب النزول «تعكس الواقع الاجتماعي والفكري لظروف الخطاب القرآني»[٥].

---

(١) - مواقف إضاءات وشهادات، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء. المغرب، ط١,، ٢٠٠٧، ع. ٥٩، ص. ١٥.

(٢) - مواقف إضاءات وشهادات، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء. المغرب، ط١,، ٢٠٠٨، ع. ٧١، ص. ٥١.

(٣) - نفسه، ص. ٧. يقول محمد عابد الجابري: «**سبب النزول لا يعني أنه الدافع أو العلة للنزول، بل هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمه عند معظمهم**». نفسه، ص. ٩.

(٤) - مواقف، ع. ٥٩، ص. ١٩.

(٥) - مواقف، ع٧١,، ص. ١٣.

من المداخل التي توحي بأن النص القرآني «تاريخي»، وهو حتمًا ليس كذلك، تجد مدخل أسباب النزول، ومدخل الناسخ والمنسوخ، ومدخل مراعاة المعهود العربي ونحو ذلك. وهذه المداخل بالتحديد هي التي يتوسل بها أرباب «**النظرة التاريخية**» إلىٰ النص القرآني، بوصفه مرآة عاكسة لما وجد يومئذ. ويبقىٰ السؤال في هذا السياق، هل الجابري من أصحاب النظرة التاريخية؟ وسيُجاب علىٰ السؤال موضوعيًا فيما يأتي من الملاحظات.

هـ- تقبل مرويات أسباب النزول في ضوء القوانين التالية:

* ألا يتعارض المعنىٰ المحمول في سبب النزول أو أسباب النزول، مع المعنىٰ السياقي للآية.

* أن يتوافق المعنىٰ المحمول في سبب النزول، مع مسار السيرة النبوية.

* أن يتوافق المعنىٰ المحمول في سبب النزول، مع المعهود الفكري والاجتماعي والاقتصادي والحضاري العربي بوجه عام[1].

رغم كل ما ذكره محمد عابد الجابري حول أسباب النزول بوصفها عمدته لإعادة ترتيب آيات القرآن الحكيم، فإنه حقيقة وقع في عطب التناقض الجلي الصريح، الذي قد يحوّل جهده كما قال أحد الدارسين، إلىٰ معْلم من «معالم الجهالات والافتراءات الجابرية»، التي «تشيع الفكر الجهول والفحش الفكري»[2]. ومن متجليات التناقض الصريح:

١- أن ترتيب الآيات داخل النص القرآني كما قال هو «توقيفي»، وحي من الله إلىٰ رسوله عبر جبريل عليه السلام[3]. وبالتبع فترتيبها حتمًا خاضع لنسق وقوانين محددة، تعين كشفها. أما ترتيب النزول فهو اجتهادي «توفيقي» نسبي، ما دام أنه صادر عن الإنسان. إذًا كيف نقدم ما هو نسبي إنساني حقيقة، علىٰ ما هو إلهي/ وحي مطلق حقيقة؟!

٢- أصدر محمد عابد الجابري حكمًا علىٰ مرويات أسباب النزول، بأن «أغلبها موضوع»، صِيغ في أزمنة التأويل المتعاقبة لتعزيز فكرة المذهب[4]. فكيف يجعل محمد عابد الجابري منها عمدته لإعادة ترتيب آيات التنزيل الحكيم من جديد، ما دام أنه لا يُعاد بناء الشيء من جديد، إلا في ضوء أساس أمتن وأصح مما سبق؟

٣- أن الآيات التي ورد بشأنها أسباب للنزول، هي قليلة العدد بالمقارنة

---

(١) - مواقف، ع٧١,، ص. ١٥-١٦.

(٢) - رد افتراءات الجابري علىٰ القرآن الكريم، محمد عمارة، دار السلام، القاهرة. مصر، ط١,، ٢٠١١، ص. ١٩٧-٢٠٠.

(٣) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٢١.

(٤) - مواقف، ع. ٧١، ص. ١٣.

مع كل آيات التنزيل الحكيم. ففي ضوء أي ضابط تتم إعادة ترتيب الآيات التي لم يرد بشأنها أسباب للنزول، حتىٰ مع افتراض أن أسباب النزول كلها هي صحيحة مطابقة؟

٤- يرىٰ محمد عابد الجابري أنه من مستلزمات المنهج، عدم الاقتصار علىٰ أسباب النزول وحدها مهما كان سندها، بالنظر إلىٰ أنها اتصفت بثلاث صفات: «**التضارب، التضخم مع توالي الزمن (الوضع)، الأخذ من الإسرائيليات**»[١]، فكف يُعتَمَد عليها وحدها؟

بناءً علىٰ ما سلف، تجد أحد الدارسين قد حكم علىٰ دعوة محمد عابد الجابري، إعادة ترتيب آيات القرآن، أن الهدف منها «إزالة القداسة والوحي» عن القرآن[٢]. وبالتبع فهي بدعة مستحدثة. في حين حكم آخران علىٰ أن ترتيب الجابري هو «ترتيب استشراقي، مأخوذ عن بلاشير ونولدكه»[٣].

وعليه؛ فإن اجتهاد محمد عابد الجابري أو دعوته الجديدة تلك، يمكن النظر إليها من زاويتين:

الأولىٰ: ما دام أن ترتيب الآيات داخل المصحف هو توقيفي بالإجماع، فإن الدعوة إلىٰ إعادة الترتيب في ضوء أسباب النزول، بالمواصفات التي مرت معنا، فهو اجتهاد متهافت من أصله، ما دام أنه بُني علىٰ شَفَا جُرُفٍ هارٍ.

الثانية: أن دعوة الجابري موضوعية ومشروعة، بالنظر إلىٰ التعرف علىٰ منهجية القرآن في بناء تصوراته، وتموجاته الداخلية أيضًا، لذا تعين البحث عن أساس آخر يتم في ضوئه ذلك[٤].

---

(١) - نفسه، ص. ١١.

(٢) - رد افتراءات الجابري، ص. ٤٢.

(٣) - الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلىٰ القرآن الكريم للجابري رؤية نقدية، عبد السلام البكاري والصديق بوعلام، دار الأمان، الرباط. المغرب، ط١,، ٢٠٠٩، ص. ٥١.

(٤) - القرآن الحكيم ما دام أنه نزل طيلة مدة زمنية مقدرة بـ٢٣ سنة، فإن نصه حتمًا خضع لنسق ترتيبي يتناغم مع نسق معرفي محدد، وليس بالضرورة خاضعًا للمخاطب زمن النزول، كما ذهب إلىٰ ذلك الكثير قديمًا وحديثًا، بل هو خاضع لذاتية النص المتناغمة مع إيحاءات ما هو مطلق، زمانًا ومكانًا وإنسانًا. وبالتبع، فالتعرف علىٰ نسقه المعرفي، يمر عبر التعرف علىٰ قوانينه وَنَفَسِه الخاص به تدريجيًا؛ ذلك أن الفكرة القرآنية عبارة عن لبنات متوالية ومتناغمة.

٢- القصص القرآني بين ترتيب النزول والمعهود العربي زمن النزول

بناءً علىٰ ما بُسِطَ سابقًا، يركز المتن الجابري علىٰ نقطتين أساسيتين: الأولىٰ تتعلق بأن الفهم الموضوعي لآيات التنزيل الحكيم، لا يتم علىٰ وجهه إلا بإعادة ترتيب الآيات والسور القرآنية حسب النزول، بناءً علىٰ مرويات أسباب النزول، وما صاحب النزول من أحداث نبوية أو رسولية[١]. أما الثانية فهي أن الفهم الموضوعي أيضًا للقرآن بما في ذلك آيات وسور القصص، لا يتحقق إلا بناءً علىٰ المعهود العربي الثقافي والحضاري زمن النزول[٢].

النقطة الأولىٰ كنا قد توقفنا عندها سابقًا، وبيَّنا أن تلك الدعوىٰ الجابرية، وإن كانت مشروعة في الأصل، إلا أنها تعترضها عدة صعوبات وإشكالات حقيقية. منها: أن أغلب الآيات والسور القرآنية نزلت لغير سبب كما ينص الجابري. وأن أسباب النزول وإن توفرت كمادة علىٰ قلتها، إلا أن نسبة كبيرة منها إما ضعيفة أو موضوعة كما ينص محمد عابد الجابري أيضًا، فضلًا عن أن آيات السور القرآنية أخضعت لترتيب توقيفي محض. وبالتبع، فهي تحتوي علىٰ نسق محدد تعين الاجتهاد في كشفه. وهذا ما جعل القدامىٰ يؤسسون لما سمّوه بـ «**علم المناسبات**» بين الآيات والسور القرآنية، دفعًا لأي شبهة توحي بعدم انسجام النص القرآني، أو علىٰ الأقل التشكيك في ذلك، بدعوىٰ كون القرآن أنزل منجمًا طيلة مدة مقدرة بثلاث وعشرين سنة[٣].

---

(١) - سعىٰ محمد عابد الجابري إلىٰ تأسيس ضابط منهجي مفاده: قراءة القرآن بالسيرة النبوية، وقراءة السيرة النبوية بالقرآن، علىٰ اعتبار أن تحرك الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتم انطلاقًا من القرآن، لذا تجد في النص القرآني مجموعة من الأحداث التاريخية التي مرت مع الرسول ﷺ، يطلق علىٰ مجموعها محمد شحرور «**القصص المحمدي**»، وهي وإن كانت تشير إلىٰ تلك الأحداث الزمكانية، فهي ليست منحصرة فيها، بل تتعداها إلىٰ مطلق الأزمنة والأمكنة، كما استنتج عدنان الرفاعي. الحكمة المطلقة، ص. ١٣٩ وما بعدها. في هذا السياق، فرق العديد من الباحثين المعاصرين بين **محمد الإنسان، ومحمد الرسول، ومحمد النبي**. انظر: الحق المطلق، عدنان الرفاعي. الحكمة المطلقة، ص. ١٣٩ وما بعدها.

(٢) - ذلك ما أدىٰ بمحمد عابد الجابري كما رأينا إلىٰ تأويلات بعيدة عن نَفَسِ القرآن وحقائقه ومقاصده.

(٣) - انظر مثلًا: تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، دراسة وتحقيق. عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط١، ١٩٨٦. ذلك عكس ما ادعاه محمد أركون من أن النص =

أما النقطة الثانية فهي -كما بينا سابقًا أيضًا- ناشئة عن وَهم تعين تصحيحه وتخليص الوعي الإسلامي الجديد منه، حتىٰ لا تفرض علىٰ كتاب الله تعالىٰ تصورات إنسانية مرحلية تنتمي إلىٰ عالم الشيء، في حين أن القرآن الحكيم ينتمي إلىٰ عالم الأمر المتعالي عن الظرفيات التاريخية كلها مهما تجردت، كما أكد علىٰ ذلك باحث معاصر[1].

إن الضابط الذي انطلق منه محمد عابد الجابري، لا ينسجم البتة مع خصوصية كتاب الله تعالىٰ، إفرادًا وتركيبًا واستعمالًا ودلالةً، وهو بقدر ما يسهم في تشويه، إن لم نقل «التلاعب بدلالات النص القرآني»، بقدر ما يحوّل القرآن إلىٰ مجرد كتاب تاريخي مرحلي قومي، مؤطرًا بأطر زمكانية مضت وانقضت، وقد جاء القرآن بتجاوزها[2]، وقد أدىٰ ذلك حقيقة إلىٰ تكريس آفة التقليد والاغتراب عن الزمان، فضلًا عن جعل سلطة النص العربي تفوق كل سلطة أخرىٰ، حتىٰ ولو كانت سلطة النص القرآني نفسه، فتحول من ثمة كتاب الله تعالىٰ، إلىٰ مجرد تابع مرة للكلام العربي، ومرة أخرىٰ للمسبقات المذهبية، بدلًا من أن يكون رائدًا ومتبوعًا، ولا شك أن ذلك خلل منهجي تعين إعادة النظر فيه لتجاوزه وتخليص الوعي الإسلامي الجديد منه.

وعليه؛ فإن محمد عابد الجابري في هذه المسألة «مقلد ومبتدع»، إذ لم يكتف بتقليد المتقدمين القائلين منذ الكتابات التأسيسية الأولىٰ، بأن القرآن لا يفهم إلا بالتوسل بالكلام العربي علىٰ مستوىٰ الإفراد والتركيب والاستعمال

= القرآني لا يتمتع بالانسجام النصي العميق، توصل إلىٰ ذلك عندما وقف عند قصة أهل الكهف. [الكهف: ٩-٢٣]. القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب، ص. ١٣٨-١٤٩.

(١) - الحق المطلق، عدنان الرفاعي، ص. ٦٤ وما بعدها.

(٢) - القرآن كتاب يتعالىٰ عن مطلق الزمكان، مهما ارتقىٰ نظامه المعرفي وأطره الاجتماعية، هذه مسلمة ننطلق منها عند تعاملنا مع كتاب الله تعالىٰ. لكنك عندما تنظر في منهجية التفسير الموروث، تجدها تركز علىٰ بعض الضوابط التي تناقض المسلمة أعلاه، مثل: الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول، التفسير بالكلام العربي... لذلك تجد نقد محمد أركون صائبًا عندما عد النص التفسيري «تاريخانيا»؛ لأنه أثناء تفسيره للنصوص القرآنية القصصية كقصة أهل الكهف، انتقل بها من كونها نصوصًا تلميحية رمزية إيحائية مجازية، إلىٰ كونها نصوصًا عادية، نظرًا لكثرة التفاصيل التي ألحقت بها. القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب، ص. ١٦١.

والدلالة[1]، بل أضاف والمعهود العربي الثقافي والحضاري زمن النزول، فأصبح كتاب الله تعالىٰ حبيس الحامل والمحمول معًا، وسنعود إلىٰ هذا الإشكال في دراسة قادمة إن شاء الله تعالىٰ[2]. وما يهمنا في هذا السياق، هو بيان أن القصص القرآني يفهم فهمًا موضوعيًا، بعيدًا عن المعهود العربي الثقافي والحضاري زمن النزول، عكس ما ادعاه محمد عابد الجابري؛ وذلك البيان يتأسس علىٰ:

أولًا: القصص القرآني إذا كان مضمونه يعكس المعهود العربي الثقافي والحضاري وقت النزول، فما وجه الحجة والبرهان في القصص القرآني، علمًا أن من الأدلة التي اعتمدها الرسول عليه الصلاة والسلام لبيان صحة وصدق ما جاء به، إتيانه بالعديد من القصص وحيًا من الله تعالىٰ، فإذا كانت حقيقة من المعهود العربي الثقافي وقت النزول، لم تؤدِ تلك الوظيفة الاستدلالية؟! فضلًا عن أن المشركين لو كان ما ادعاه محمد عابد الجابري صحيحًا، لقالوا يومئذٍ: إنك يا محمد تزعم أنك مرسل من قبل الله تعالىٰ، تعين أن تأتينا بما لم نعرفه، ولكنك جئتنا بقصص نحن نعرفها؟! زد علىٰ ذلك أنهم كانوا يصفون القصص القرآني بأساطير الأولين [القلم: ١٥]، [الأنفال: ٣١]، علمًا منهم بأنها ليست ممّا ألفوه، قصد الطعن فيما جاء به ﷺ، من باب «التغالب»[3].

ثانيًا: كان للعرب قبل وأثناء زمن النبوة والنزول، روايات وحكايات عن وقائع تاريخية مضت في سالف الأزمان، إما متعلقة بأخبار العرب، أو بأحداث

---

(١) - لذلك فإن القطيعة التي تبناها محمد عابد الجابري مع التراث ليست مطلقة، بل هي جزئية، وذلك عكس ما ادعاه محمد عمارة. رد افتراءات الجابري، ص. ٢٥-٢٧.

(٢) - ترقب دراستنا: «التلاعب بدلالات النصوص والمفاهيم الشرعية في الفكر الإسلامي».

(٣) - «قانون» أو «مبدأ التغالب» مقتضاه: أن ينسب أحد الأطراف المتصارعة والمتنازعة للطرف الآخر، كل ما من شأنه أن ينقص من قيمته كذات، ليسقط بالتبع قوله وما يدعو إليه في أعين مدعويه، وهذا نجده يتجلىٰ في تاريخ الأنبياء والرسل مع أقوامهم عمومًا، وفي سيرة الرسول ﷺ مع مشركي مكة علىٰ وجه التحديد، حيث نسبوا إليه العديد من الأوصاف مع علمهم بأنه براء منها، كوسيلة من وسائل المحاصرة، مثل: كونه ساحرًا، مجنونًا، كاهنًا، ويمكن عده وجهًا من أوجه الإكراه أو العنف الرمزي. تأمل الآيات الآتية: [الحاقة: ٤٠-٤٦]، [يس: ٦٨].

إنسانية وكونية، أو بقصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، خصوصًا إذا استحضرنا أنه كان للعرب اتصالات بقبائل ودول وإمبراطوريات، تمتلك «رأسمال رمزي» من الأخبار، وبالتحديد أهل الكتاب، أو «مجتمعات الكتاب» باصطلاح محمد أركون[1]، لكنها لم تكن تخلو من بُعد الأساطير؛ نظرًا لفارق الزمن بين وقوع الحدث، وروايته ونقل خبره. لذا عمد القرآن إلىٰ تنقية القصص مما أضيف إليها وعلق بها وليس منها، علاوةً علىٰ التركيز علىٰ مواطن العبر فيها[2].

ثالثًا: يتضمن النص القرآني العديد من القصص، التي بقدر ما تحمل وجهًا حسيًا تاريخيًا، تحمل أيضًا وجهًا متعاليًا، وهي من المستبعد أن تكون من المعهود العربي الثقافي، لقدم الزمن وبُعد مكان الحدث. تأمل النصوص القرآنية الآتية:

* يقول الله تعالىٰ بعد أن ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه وابنه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

* يقول أيضًا قبل أن يستهل في ذكر قصة نوح عليه السلام: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

* قوله سبحانه بعد أن ذكر قصة من قصص عالم الذر: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

رابعًا: يعد القصص القرآني «إنسانيًا» بالدرجة الأولىٰ، يقص ما حدث كما حدث، لكن بالتركيز علىٰ مواطن «العبر»، أكثر من التفاصيل المتعلقة بحدث

---

(١) - يقصد بذلك المجتمعات الناتجة عن الكتاب الموحىٰ به، كالتوراة، الإنجيل، القرآن، أو «المجتمعات التي سيطرت عليها ظاهرة الكتاب المقدس». وقد استعمله بدلًا من «أهل الكتاب»، لكي «يبرهن علىٰ إمكانية الخروج من أسر السياج الدغمائي المغلق؛ لإجراء زحزحات منهجية وإبستمولوجية علىٰ الفكر الديني التوحيدي». القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب، ص. ٨٠. تاريخية الفكر العربي الإسلامي أو نقد العقل الإسلامي، ترجمة. هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط٣,، ١٩٩٨، ص. ٧١.

(٢) - انظر دلالة مفهوم العبرة في: القصص القرآني، محمد شحرور، ج١,، ص. ١٩٠ وما بعدها.

المرحلة؛ ولذلك يمكن أن نسمه بمكمن التجارب الإنسانية[1]. فإن الإنسان دومًا في حاجة إلىٰ تجارب غيره؛ سواء تضمنت نفعًا أم لا، لتقويم مسيرته وحركته في الحياة من «باب الاستلهام والاعتبار»، أما إذا كانت متعلقة بالأنبياء والرسل، فالإنسان أحوج ما يكون إليها؛ لأنها «تجارب» مسددة بالوحي. تأمل النصوص القرآنية الآتية:

* يقول الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨، ٦٩].

* يقول سبحانه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

* يقول تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

* قوله أيضًا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦، ٨٧][2].

خامسًا: القصص القرآني يأتي في غالب أمره مذيلًا بعبارات دالة علىٰ ما هو إنساني مجرد. وبالتبع، فلا داعي لربطه بالمعهود العربي الثقافي زمن النزول، لتغليب ما هو حسي تاريخي، علىٰ ما هو مجرد متعالٍ. تأمل النصوص القرآنية الآتية:

---

(١) - الإنسان في حياته الدنيا محكوم بسنة «الكدح»، ليحقق من خلالها ما يصبوا إليه (سعادته)، ومن بداية المنطلق إلىٰ تسجيل الهدف، يصيب ويخطئ، حسب مبادئه وجهده المبذول وظروفه. ومواطن الإصابة والخطأ، هي ما يشكل للإنسان في علاقته بغيره تجارب. والإنسان كما يقول التاريخ، لا يقدر علىٰ تطوير وجوده، إلا بالنظر إلىٰ تجارب غيره، وهذا حدث ويحدث دومًا.

(٢) - يحتوي التنزيل الحكيم قصصًا، ليست من جنس قصص الأنبياء والمرسلين، ولكنها تلتقي في الهدف نفسه: [النمل: ٣٢]، [القصص: ٧٨-٨٢]، [غافر: ٢٩].

* يقول الله تعالىٰ بعد أن ذكر قصة آدم عليه السلام: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

* يقول سبحانه بعد أن ذكر قصص مجموعة من الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤، ١٠٥].

* يقول عز من قائل، بعد أن ذكر قصة لوط عليه السلام: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧].

* يقول أيضًا سبحانه بعد أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٤][1].

بناءً علىٰ ما سبق، نخلص إلىٰ أن القصص القرآني تعبيرًا وعبرًا، لم يكن من المعهود العربي الثقافي والحضاري زمن النبوة والنزول[2]، بدليل قوله تعالىٰ:

---

(١) - فالادعاء الجابري يوحي أيضًا علاوة علىٰ ما سبق، بأن النص القرآني يقوم علىٰ «مبدأ التناص»، ما دام أنه قد استلهم ما وجده شغالًا داخل الساحة العربية وغيرها وقت النزول، مما يفقد النص القرآني خصوصيته؛ سواء علىٰ مستوىٰ الشكل أو المضمون. والقول بأنه قد تأسس علىٰ التناص فكرة نجدها عند كل من: محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص. ٢٣٤. ونصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، ص. ١٠١ وغيرها.

إذن؛ فالمسلمة التي نتعامل بها مع كتاب الله تعالىٰ، هي أنه لا يشبهه أي نص، ليس علىٰ مستوىٰ القصص فقط، بل النص ككل؛ نظرًا لكونه كتابًا عالميا إنسانيا خاتمًا. وقد اجتهد عدنان الرفاعي كثيرًا من أجل أن يبين أن النص القرآني فريد، وتتجلىٰ فرادته في شكله ومضمونه، وقد وقف الباحث علىٰ أن النص القرآني وإن أشار إلىٰ ما هو تاريخي، فهو يتجرد عنها ويتعالىٰ ليعانق ما هو إنساني. انظر: الحكمة المطلقة، ص. ١٣٩ وما بعدها. وتعالي النص القرآني لا يقصد به مجرد إخفاء البعد التاريخي، كما ادعىٰ ذلك محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص. ١٦٦. بل إن تعاليه خصيصة تقتضيها فرادته وخصوصيته.

(٢) - في هذا السياق قد يقال: إذا كان الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٥]. فهذا يقتضي أن يبعث الرسول بمعهود قومه اللغوي والفكري، في حين أن النص القرآني يختلف جذريًا شكلًا ومضمونًا، عن أي نص في الوجود. فكيف إذًا ينسجم الادعاء مع معنىٰ النص؟ قف معي علىٰ: أولًا: إن المقصود باللسان في النص القرآني لا يقصد به اللغة والمعهود زمن النزول، بل هو وسيلة التخاطب وآلية البيان. الحق المطلق، ص. ٧٣ وما بعدها. ثانيًا: إذا سلمنا بأن اللسان هو اللغة، والقرآن كتاب عالمي إنساني خاتم، فذلك يقتضي أن تكون من جنسه، وهي حتمًا ليست =

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]. لكن ذلك لا ينفي أنه كان للعرب زمن النزول حكايات وروايات. ولكن شتان بين القصص القرآني، وحكايات الناس في كل زمكان.

ثانيًا: ملاحظات تطويرية-تكميلية

* النقد البناء والنقد التهديمي-التقويضي

انبثق حديثًا في الفكر الإسلامي توجه أو مدرسة[١] تدعو إلىٰ إعادة قراءة النص الشرعي، القرآني والحديثي، وما نشأ في ظلالها من علوم ومعارف، ومن أبرز من يمثلها: محمد أركون، محمد عابد الجابري، محمد شحرور، نصر حامد أبو زيد، أبو يعرب المرزوقي، إدريس هاني، عبد الكريم شروس، عدنان الرفاعي، طه عبد الرحمن وغيرهم. وكل واحد من هؤلاء، عيّن زاوية نظره ومنهجيته المتبعة في ذلك[٢]. ولكن يبقىٰ الهدف إلىٰ حد ما واحد، يتمثل في تجديد الصلة بالنص الشرعي لإثراء الفكر والوجود الإسلامي والإنساني علىٰ حد سواء. في المقابل ظهر «دعاة الوصاية» وحماة التراث الإسلامي عمومًا، والموروث التفسيري علىٰ وجه التحديد، كرد فعل في وجهها، يرفعون العديد من الألوية؛ فمرة يرفع لواء: أنها تهدف إلىٰ نزع صفة الوحي عن القرآن، وجعله نصًا

= من جنسه، ما دامت أنها تاريخية متحيزة. وعليه؛ فإن لغته هي لغة التعالي، ومع ذلك فهو قابل للفهم في كل زمكان، باتباع منهج/قراءة الترتيل. ثالثًا: إن ما سلف لا يطعن في قيمة اللغة العربية، فهي تعكس هوية أمة، والأمة لا تبدع إلا بلغتها، كما هو ملاحظ قديمًا وحديثًا. ولكن نريد أن تقدر الأمور حق قدرها ليس إلا.

(١) - أُطلِقَ مصطلح «**المدرسة**» علىٰ جهود أصحاب القراءات الجديدة للنص الشرعي القرآني تحديدًا؛ سواء كان انتماءهم عربيًا إسلاميًا، أو غربيًا، نظرًا لما يلي: ١) قد أثروا النص؛ سواء من خلال تعديد المقاربات، أو تكثير الدلالات. ٢) قد أسسوا مجالًا للبحث العلمي؛ سواء علىٰ مستوىٰ المنهج أو المضمون. ٣) أنها قد فرضت نفسها، وذلك يتجلىٰ في كثرة الأبحاث والملتقيات. ٤) أنها ترسم الخطوط والمعالم العامة لتطوير النص الشرعي في الغالب.

(٢) - ذلك ما سنتعرف عليه بالتفصيل عبر تقديم العديد من الدراسات المتعلقة بكل واحدٍ من هؤلاء علىٰ حدة، افتتحناها بدراسة أولىٰ حول قراءة محمد أركون. وهذه دراسة ثانية حول محمد عابد الجابري. والثالثة ستكون إن شاء الله تعالىٰ حول قراءة محمد شحرور المعاصرة للقرآن.

تاريخيًا، مثل أي نص بشري آخر[1]. ومرة ثانية يرفع لواء: أنها تسعىٰ إلىٰ تغريب الأمة الإسلامية؛ وذلك بقطع صلتها بتراثها، واستبداله بتراث الغير. ومرة ثالثة يرفع لواء: أنها تؤدي إلىٰ التلاعب بالنص الشرعي ودلالاته؛ لتسويغ القبليات والمذهبيات الحديثة.

حقيقة بعض ذلك موجود، ولكنه لا يمثل إلا جزءًا يسيرًا من الحقيقة الفكرية، ونحن في هذا السياق لا نتغيىٰ تنزيه ساحة هؤلاء عن الخطأ، ولا ساحة الموروث التفسيري عن الانزلاقات المذهبية بشتىٰ أنواعها[2]، بل نبتغي ترسيخ «منهج التوازن»، الذي بقدر ما يرصد المفيد النافع لتطويره والبناء عليه، يرصد أيضًا الأعطاب لتجنبها وعدم تكرارها. إذ المعرفة البشرية كما هو معلوم بقدر قيامها علىٰ «مبدأ الموازنة»، تقوم أيضًا علىٰ «مبدأ التراكم». وللتدليل علىٰ ما نحن بصدده، نأخذ علىٰ سبيل المثال محمد عابد الجابري، بوصفه قد قدم فهمًا جديدًا للتنزيل الحكيم، في ضوء إعادة ترتيب النص القرآني حسب النزول، بناء علىٰ مرويات أسباب النزول، فاجتهاده كما تجلىٰ لك من خلال متن الدراسة، تلاحظ أنه قد أصاب في أمور وأخطأ في أخرىٰ، من وجهة نظر صاحب الدراسة، فمما أصاب فيه مثلًا:

---

(١) - يؤكد طه عبد الرحمن علىٰ أن القراءات الحداثية لعموم آيات القرآن، تستهدف أساسًا رفع عائق القدسية عن القرآن؛ وذلك من خلال نقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلىٰ الوضع البشري، ويتجلىٰ النقل في: حذف عبارات التعظيم، استبدال مصطلحات منقولة بمأصولة، التسوية في رتبة الاستشهاد بين القرآن والكلام البشري. روح الحداثة، ص. ١٧٨-١٧٩. قارن ما سلف بما يقوله محمد عابد الجابري: «**تبقىٰ مسألة كون النص القرآني وحيًا من عند الله تعالىٰ، وأنه كلام الله، هذه مسألة لا يلغيها ولا ينال منها لا شعار تاريخية النص، ولا مفهوم أسباب النزول، حتىٰ بالمعنىٰ الفلسفي للسببية**». مواقف، ع٣١,، ص.١٦, وكذا بما يقوله محمد أركون في سياق حديثه عن التفريق بين القرآن كخطاب شفهي، ونص مكتوب: «**لا أهدف إلىٰ نزع صفة القداسة عنه، وإنما أصف الأمور كما هي**». قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة وتعليق. هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت. لبنان، ط٣,، ٢٠٠٤، ص. ١٨٦.

(٢) - أو ما يصطلح عليه بالتفسير المذهبي/الأيديولوجي، وهو ليس متعلقًا بمجال التفسير فقط، بل يشمل مختلف مجالات المعرفة في التراث الإسلامي. وفي هذا السياق يدعو نصر حامد أبو زيد إلىٰ ما سماه بـ «**صياغة الوعي العلمي بالتراث**». النص والسلطة والحقيقة، ص١٣, وما بعدها. ومفهوم النص، ص. ١٠.

- لا ناسخ ولا منسوخ في القرآن الحكيم، عكس ما ثبته الموروث التفسيري[1].

- ضرورة التعامل مع مرويات أسباب النزول بنقد وقبولها بحذر.

- تعين الأخذ بعين الاعتبار أثناء القراءة مراعاة واحترام خصوصية النص القرآني.

- الطابع المهيمن علىٰ النص القرآني هو العقلي، إذ لا وجود فيه لما هو أسطوري[2].

ومما أخطأ فيه، نذكر:

- لا يفهم القرآن إلا باستحضار المعهود العربي بنوعيه.

- تتم إعادة ترتيب القرآن باستحضار ما هو ظني- مرويات أسباب النزول.

- القصص القرآني لا يفهم إلا بالتوسل بالتوراة والإنجيل.

بناءً علىٰ ما سلف، لا يتعين رفض ما توصل إليه محمد عابد الجابري جملة وتفصيلًا، بدعوىٰ ما وقع فيه من أعطاب، ولا تنزيهه بدعوىٰ ما أصاب فيه، بل الحكمة ضالة الباحث أنىٰ وجدها أخذها وانتفع ونفع بها. وتجد في مقابل هذا المهيع، مَن يحمل من «دعاة الوصاية» لواء «النقد التهديمي التقويضي»، لا همَّ لهم سوىٰ بيان مزالق هذا المفكر وأعطاب ذاك، والقصد من وراء ذلك تزهيد الوعي الإسلامي الجمعي في تلك الاجتهادات، والإبقاء علىٰ فهومات مرحلية تاريخية لكتاب الله تعالىٰ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وكأنها قد بلغت ما بلغه النص الشرعي من صحة وقداسة وتنزيه وعصمة مطلقة،

---

(١) - ظهر توجه متعلق بقراءة النص القرآني، يرىٰ أصحابه أن مسألة النسخ لا وجود لها في القرآن، وقد ظهرت تاريخيًا إما نتيجة خداع مصطلحي، أو وهم مسبق. وهذا ما يدعم ضرورة الدراسة النقدية التاريخية للتراث. انظر: الحق المطلق، عدنان الرفاعي، ص. ٤٠٥ وما بعدها. دينامية النص، محمد مفتاح، ص. ١٨٩ وما بعدها.

(٢) - ذلك عكس ما يدعيه محمد أركون. الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص.١٣٠, ونصر حامد أبو زيد. النص والسلطة والحقيقة، ص. ١٣٥.

في حين هي تبقىٰ مجرد اقتراحات من بين أخرىٰ عديدة، وهي لا تحمل من الصحة والصدق إلا بمقدار موافقتها لكتاب الله تعالىٰ والسنة الثابتة[١]. ومن أبرز ما يمثل ذلك اللواء فيما يتعلق بالفهم الجابري الجديد للتنزيل الحكيم، تجد محمد عمارة، الذي خصص مصنفًا وصف من خلاله اجتهادات محمد عابد الجابري بكونها لا تعدو أن تكون «مجرد مجازفات وافتراءات»، «تروج الفكر المجهول»، و«تشيع الفحش الفكري»[٢]. بالإضافة إلىٰ أن اجتهاده المتعلق بإعادة ترتيب النص القرآني حسب النزول، لا يهدف من خلاله إلا إلىٰ «إزالة التقديس وصفة الوحي عنه». وإن التجديد الداخلي الذي يبتغيه الجابري، لا يتحقق «إلا بالتحرر من المقدسات»[٣]. تجد أيضًا من يرىٰ بأن كتاب الجابري «المدخل»، هو «مجرد استنساخ للآراء الاستشراقية، أو الترويج للشبهات القديمة»، وفهمه منطلق من الأفكار الماركسية الشيوعية ومبادئها. وبالتبع، حمّل الآيات القرآنية ما لا تدل عليه حقيقة[٤].

---

(١) - يتعامل جل أصحاب القراءات الجديدة مع التفسير الموروث، بناءً علىٰ الأمر الآتي: أن التفاسير الموروثة بشتىٰ أنواعها، ليست إلا بعض المعاني الممكنة للنص القرآني، لذا لا مناص من استئناف التدبر الاجتهادي لكتاب الله تعالىٰ، للتوصل إلىٰ المعاني الممكنة الأخرىٰ.
الضابط التفسيري أعلاه، وإن تم التنصيص عليه؛ سواء في الموروث التفسيري، أو عند أصحاب القراءات الجديدة، إلا أنه إما لم يفعل بالشكل المطلوب، أو تمت مصادرته. للتفصيل ترقب دراستنا القادمة: القرآن والقراءات المذهبية.

(٢) - رد افتراءات الجابري علىٰ القرآن الكريم، ص. ١٩٧-٢٠٠.

(٣) - نفسه، ص. ٣٣-٤٢. دلالة لفظ المقدسات عند هؤلاء لا تشمل فقط النص القرآني والحديثي الثابت، بل أيضًا وبنفس القوة والدرجة وربما أكثر، مجمل الاجتهادات البشرية لأجيال السلف، التي تصنف تحت قاعدة: «**ما علم من الدين بالضرورة**»، بدليل أنك تجد الواحد إذا خالف النص الشرعي أوجد لذلك مسوغات، لكن إذا خالف مجتهد معاصر، ما هو عليه من أفكار وتصورات مرحلية، كأن القيامة قامت! ومن المعلوم أن الآراء البشرية لا تتحول مقدسة بأي ذريعة، إلا عندما تصل الأمة إلىٰ حالة من العقم تنعدم فيها ذرة إبداع فكري، وهذا ظاهر فيما يسمىٰ في تاريخ الفكر الإسلامي بـ «**مرحلة الانحطاط/ المحافظة**»، التي ما تزال حقيقة بعض تأثيراتها مستمرة إلىٰ اليوم. لذا لا مناص اليوم من إعادة النظر في مجموعة من التصورات التي أصبحت مسلمة أو مقدسة بفعل الزمن، ليكون وجودنا الفكري الإسلامي ذا اعتبار وقيمة، في أعين الذات قبل الغير، وما ذلك ببعيد.

(٤) - الشبه الاستشراقية، ص. ١١-٢٩٧.

إن ما ننكره علىٰ أصحاب هذا المهيع في البحث والدراسة، هو لماذا يتم التركيز بشكل لافت للانتباه علىٰ ما لا يتوافق مع منطلقات ومرجعيات وتصورات هؤلاء، بدلا من أن يكون البحث منصبًا علىٰ تنقيب ما يفيد الفكر والوجود الإسلامي والإنساني، وبيان الحقائق المجردة النافعة. مع العلم أن الفكر الإنساني من أي مرجعية انطلق، وبأي تصورات سلّم، يصيب ويخطئ بنسب متفاوتة، فإن ذلك الخلل هو الداء القاتل للبحث والدراسة؟! وعليه؛ فإن ما أخذناه علىٰ عاتقنا من خلال العديد من الدراسات تباعًا، هو منهج علىٰ النقيض من منهج أرباب النقد التهديمي التقويضي.

تناول محمد عابد الجابري بالتأويل ما يتعلق بقصص يوم الآخرة، إذ قام بتأويل ما يتعلق بالنصوص القرآنية القصصية المتعلقة بمشاهد الآخرة تعذيبًا وتنعيما. نعرض أولا تصوره الكلي، ثم نردفه بالملاحظات النقدية والتكميلية.

ننطلق من قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ٦-١٤].

الفكر السائد قبل وأثناء زمن النزول، المحمول من قبل معارضي الدعوة التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام، كان يتأسس علىٰ جملة تصورات، هي في الغالب موروثة، ومنها: إنكار البعث الأخروي وما يستلزمه من تعذيب أو تنعيم في القبر، أو الجنة أو النار أو الصراط أو النشور . . . جملة وتفصيلًا؛ سواء كان جسمانيًا أو روحيًا، حججهم في ذلك:

١- إن الجسم إذا تحلل إلىٰ لا شيء، يستحيل أن يعاد مرة أخرىٰ كما كان. وبالتبع، فبالموت تنتهي حياة الإنسان إلىٰ الأبد. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ

قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٦-٧٨] (١).

٢- كون الإنسان بعد موته وتحلله إلىٰ لا شيء، يعيش عالمًا لا مشهودًا، يعد من الأمور غير المعقولة. وبالتبع، فالمنطق يقتضي ألَّا نؤمن إلا بما يرىٰ ويشاهد. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ [سورة ق: ١-٤]. وقوله أيضا: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٥٠].

٣- إن ما منع المشركين من الإيمان والتصديق بالعالم الأخروي وما يتعلق به كما يرىٰ المتن الجابري، ليس لضعف حجج الفكرة/المعتقد، بل لأنه يستلزم مضمونًا أخلاقيًا، قائمًا علىٰ المسؤولية والمحاسبة، وهذا ما كان يأباه الوعي الجمعي وقتئذ(٢). تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩]. وقوله أيضًا: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧، ٨]. وقوله أيضًا: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

لما تناول الفكر الإسلامي الكلاسيكي النصوص القرآنية، وكذا الحديثية المتعلقة بالبعث الأخروي وما يقتضيه، اختلف وتنوع اختلافه إلىٰ مذهبين: مذهب

---

(١) - عن ابن عباس قال: جاء العاصي بن وائل (وقيل أبي بن خلف) إلىٰ رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته، فقال: يا محمد، أيبعث هذا بعدما أرم؟ قال ﷺ: «**نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم**». فنزلت الآيات. أسباب النزول، الواحدي، اعتنىٰ به وليد الزكري، المكتبة العصرية، بيروت. لبنان، ط. ٢٠٠٢، ص. ٢٠٠. تسهيل الوصول إلىٰ معرفة أسباب النزول، الجامع بين روايات الطبري والنيسابوري وابن الجوزي والقرطبي وابن كثير والسيوطي، خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ط١,، ١٩٩٨، ص ٢٩٠.

(٢) - فهم القرآن الحكيم، ج٢,، ص. ٢٩١، ج١,، ص. ١٨٥.

يرىٰ أنه يتعلق بالأرواح فقط، والآخر يرىٰ أنه يتعلق بالأرواح والأجساد علىٰ حد سواء. توقف المتن الجابري لدراسة مذهب بعض المتكلمين والفلاسفة، الذين كان مذهبهم، أن البعث الأخروي متعلق بالأرواح فقط[١]. فجاء رأي محمد عابد الجابري مؤيدًا لمذهب هؤلاء، إذ يرىٰ أن كل ما في الأمر أن هنالك نفختان: الأولىٰ يفنىٰ بها العالم. والثانية يقع بها البعث الروحي. أما ما يُروىٰ حول القبر وما يتعلق به فليس يوجد في القرآن ما يشهد له[٢]، أو كما قال ابن حزم الظاهري: «من قال إن في القرآن ما يدل علىٰ عذاب القبر، إنما هو متأوّل»[٣]. إذًا ففكرة عذاب القبر كما ينص المتن الجابري، **غريبة عن القرآن، وكذا فإن سؤال منكر ونكير، ليس له أصل في القرآن، بل هو من الموروث القديم علىٰ الإسلام. وأما الأحاديث المروية في الباب، فهي من باب الترغيب والترهيب. وأما التفاسير والآراء الواردة في هذا الشأن، فهي تأويلات بعيدة لا تستقيم مع النص القرآني، وغريبة عنه لا تتناغم معه**[٤].

رغم هذا النفي الجابري الصريح، تجده يقرر أن ما يتميز به القرآن عن كل من التوراة والإنجيل، ليس فقط اهتمامه بمسألة البعث والجنة والنار، إذ هو لم يقتصر علىٰ إثبات العالم الأخروي، بل قدمه في صور مشخصة، حتىٰ عد كما يقول الجابري، خطاب القيامة والبعث والجنة والنار، «**أخلاقًا وسلاحًا**»[٥].

---

(١) - نفسه، ص. ١٨٢. من المتكلمين ذكر: الرازي، الغزالي، الأشعري، ابن حزم. ومن الفلاسفة ذكر: ابن سينا، ابن رشد. نفسه. ١٨٦-١٩٠-١٩٣.

(٢) - نفسه، ص. ٢٩٣.

(٣) - نفسه، ص. ١٨٢.

(٤) - نفسه، ص. ٢٩٣. ج٣,، ص. ٦٠-٦١.

«القطعيات الجابرية» أعلاه، لم ينفرد بها محمد عابد الجابري وحده، بل يوجد غيره ممن يقول بها، كمحمد شحرور، انظر مصنفه: السنة الرسولية والسنة النبوية رؤية جديدة، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١,، ٢٠١٢، ص. ٧١ وما بعدها. وسنعود للنظر في تلك القطعيات الجابرية، انطلاقًا من النص الشرعي الصحيح الصريح لاحقًا.

(٥) - فهم القرآن الحكيم، ج٢,، ص. .١٨٣ إذا كان القرآن قدّم عالم البعث والجزاء تقديمًا مشخصًا، وكان بالإمكان أن يقدم من خلال العديد من الصور الأخرىٰ، لا مرية أن ذلك يدل علىٰ مادية العالم الأخروي كما جاء الخبر، وإلا لما كان لذلك التقديم معنىٰ.

وعليه؛ فهل ما أخبر الله تعالىٰ به في نص القرآن حصرًا، وقدم عليه «صورًا مشخصة»، يقصد به مجرد تخيلات وهمية، أم هو الحق المطابق للواقع كما هو سيكون؟

بناءً علىٰ ما سبق، فإن إنكار الجابري لمسألة القبر ومستلزماته، وكذا للبعث الجسدي ومقتضياته، مرده إلىٰ:

أوَّلًا: أن ما أخبر الله تعالىٰ به ورسوله عليه الصلاة والسلام، إذا لم يكن موافقًا للمعهود الثقافي والحضاري للعرب زمن النزول، تعيَّن رفضه، أو تأويله تأويلًا يجعله يتناغم مع المعهود العربي وقتئذ[1].

ثانيًا: أن كل ما لم يرد في القرآن تصريحًا، تعين عدم الالتفات إليه. وهذا يدل علىٰ أن محمد عابد الجابري لا يلتفت إلا نادرًا للسّنة النبوية، حتىٰ عُدّ من قبل بعض الدارسين، أنه من «**القرآنيين**»[2].

ثالثًا: أن قول الجابري بأن البعث الأخروي سيكون روحيًا فقط، بقدر ما يعكس تقليده لما سبق، يدل علىٰ أنه بُنيَ علىٰ «استقراء ناقص» وتأويل مردود. ما دام أنه توجد العديد من النصوص القرآنية، وكذا الحديثية الصحيحة، تنتظم في معنىٰ كلي مفاده: أن البعث الأخروي بقدر ما سيكون روحيًا، يكون أيضًا جسديًا، كما سنبسط ذلك من خلال التوقف علىٰ العديد من النصوص القرآنية، التي تحتوي علىٰ جملة معانٍ واضحة أشد ما يكون الوضوح، كأنها الشمس في ضحاها، لقطع الطريق علىٰ كل من يذهب «مذهب التأويل التقويلي العبثي المفرط الغريب، أو قل، التقليدي، مذهبيًا كان أو تاريخيًا».

---

(١) - إذا نظرت في الضابط التراثي-الجابري أعلاه، وجدته آتيًا علىٰ خصوصية النص القرآني وكأنها غير معتبرة. في حين تعين اعتبارها من خلال النظر إلىٰ القرآن بالقرآن؛ بمعنىٰ أن أي تصور إذا لم يكن متوافقًا ومتناغمًا مع النص القرآني، وجب رفضه وعدم الالتفات إليه جملة وتفصيلًا.

(٢) - الشبه الاستشراقية في مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ٧٣. يوجد جمع من الباحثين المعاصرين همهم الوحيد هو التصنيف، الذي يهدف إلىٰ التجريح، إن لم نقل التزهيد. ومحمد عابد الجابري كما غيره، يعد حسب تصنيف هؤلاء من «**القرآنيين**»، كمحمد أركون ومحمد شحرور وعدنان الرفاعي وغيرهم. ولا شك أن هذا الوصف أو التصنيف يحمل وجهين، وجه نقيم له اعتبارًا، والآخر لا نقيم له وزنًا. انظر الملاحظات الآتية.

ملاحظات نقدية وتكميلية

أولا: ملاحظات نقدية - تقويمية

*** الإيمان بالغيب (الآخرة) وعلاقته بالعقل (التأويل)**

النصوص القرآنية المتعلقة بالأخبار والقصص، خصوصًا ما تعلق منها بأخبار البعث والنشور وأمور المعاد ومشاهد الجنة والنار[1]، فهمت منذ انبثاق النص القرآني وإلىٰ اليوم بعدة فهوم، حسب الأفق والنظام المعرفي المهيمن علىٰ كل مرحلة تاريخية علىٰ حدة. لكن يبقىٰ السؤال هو: **هل طبيعة النص القرآني وخصوصيته تتناغم مع تلك الفهوم، أم هي مجرد اجتهادات لا تحمل من الصحة والصواب، إلا بقدر ما تتوافق مع محمولات النص القرآني؟**

في هذا السياق قدم المتن التيمي [ابن تيمية ت ٧٢٨هـ] ثلاث منهجيات، قُدِّمت في ضوئها ثلاثة فهوم متعلقة بجنس النصوص القرآنية أعلاه، وهي:

١- منهجية أهل الوهم والتخييل: فهمها قائم علىٰ أن ما تم الإخبار به في النص القرآني، غير مطابق لحقيقة الأمر؛ لأن مصلحة الجمهور اقتضت أن يخاطبوا بما يتوهموا ويتخيلوا أنه كذلك، وإن كان في حقيقة الأمر ليس كذلك. وهذا المهيع اتبعه كل من: ابن سينا، ابن عربي، السهروردي، ابن طفيل، ابن رشد[2].

---

(١) - القصص القرآني إما أن يكون متعلقًا بالزمن الماضي، كما هو الشأن في قصه سبحانه لقصص الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهذا سنخصص له فصلًا مستقلًا، وإما أن يكون متعلقًا بالزمن المستقبلي، كما هو الشأن في قصه سبحانه لأمور المعاد ومشاهد الآخرة. وهذا ما سنقف عليه في هذه الملاحظة.

(٢) - درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، تحقيق. محمد رشاد سالم، من دون تاريخ، ج١,، ص. ٩٨.

٢- منهجية أهل التحريف التأويل: فهمها قائم علىٰ أن ما تم الإخبار به، إن كان قد قصد به حقيقة الأمر نفسها، إلا أن ذلك لم يبين حقيقة البيان، لذا لزم بيانه بالتوسل بآلية التأويل العقلي، بحسب ما يتيحه قانون الإمكانات الدلالية للغة العربية. وهذا المهيع اتبعه كل من: المعتزلة، الكرّامية، الكلابية، الشيعة[١].

٣- منهجية أهل التجهيل والتضليل: فهمها قائم علىٰ أن ما تم الإخبار به، ما زال لم يدرك تمام الإدراك، لا «زمن النزول»، ولا في «أزمنة التأويل» المتعاقبة[٢].

بناءً علىٰ التصنيف التيمي أعلاه، الذي هو مفيد لنا في هذا السياق، تجد أن الفهم الجابري لا يخرج عن المنهجية الأولىٰ، منهجية أهل الوهم والتخييل، إذ ما تم الإخبار به في النص القرآني من أمور المعاد ومشاهد الآخرة، محمول علىٰ ما هو غير حقيقي، إذ أمر التعذيب والتنعيم الأخروي متعلقان بما هو روحي، فالروح قابلة لذلك في ضوء قوانين ومقاييس تختلف عن قوانين عالم الشهادة ومقاييسه، وهذا الفهم له أتباع كثر في الوقت المعاصر[٣].

النصوص القرآنية المتعلقة بأخبار المعاد ومشاهد الآخرة، يمكن تصنيفها إلىٰ ثلاث مجموعات، هي:

المجموعة الأولىٰ: حوارات أهل الجنة، أو أهل النار، أو أهل الجنة والنار فيما بينهما.

المجموعة الثانية: نصوص تخبر عن التعذيب الأخروي لأهل النار بصور حسية مشخصة.

المجموعة الثالثة: نصوص تخبر عن التنعيم الأخروي لأهل الجنة بصور حسية مشخصة أيضًا.

---

(١) - نفسه، ص. ١٢-١٣.

(٢) - نفسه، ص. ١٥. لا شك أن تلك المنهجيات تجعل من النص القرآني وكأنه طلاسم غير ميسرة للفهم، ولا تعكس حقيقة ما تخبر عنه. في حين أنك إذا نظرت في كتاب الله تعالىٰ، وجدته ميسرًا وقابلًا للفهم في كل زمكان، ومحمولاته الدلالية الخبرية تعكس واقع حقيقي لا مجرد تخييل وهمي.

(٣) - القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب، محمد أركون، ترجمة وتعليق. هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت. لبنان، ط٢,، ٢٠٠٥، ٥٨.

سنختار بعض النصوص الدالة علىٰ كل مجموعة علىٰ حدة، ليتبين من خلالها هل البعث الأخروي يتعلق بالروح فقط، أم بالروح والجسد معًا. وهل التنعيم أو التعذيب يكون روحيًا أو نفسيًا أم يكون ماديًا حسيًا؟ لكن قبل تناول ذلك، يتعين علينا النظر فيما هو المنهج القرآني المتبع في إثبات العالم الأخروي، ما دام أنه لا يستقيم منهجيًا الحديث عن الفرع، إلا بعد تناول الأصل؟

نص القرآن سواء في موضوع «**البناء والإثبات**»، أو في موضوع «**النفي والدحض**»، يعتمد علىٰ منهج واضح المعالم، لُبُّه مخاطبة الجانب العقلي في الإنسان. فالعالم الأخروي بوصفه عالمًا غيبيًا تحكمه قوانين خاصة، مخالفة لقوانين العالم الدنيوي[1]، كانت العرب زمن النزول تنكره وتنفيه، حالًا ومستقبلًا[2]؛ نظرًا لعدة اعتبارات ذاتية غير موضوعية[3]. ومن الأدلة الموضوعية التي اعتمدها القرآن لإثبات مادية العالم الأخروي تجد:

١- أن الخبر يحمل من المصداقية حسب قائله، فإذا كان الخبر الغيبي والحالة هذه، صادرًا عن الله سبحانه المتصف بالعلم المطلق المحيط، فكل ما يصدر عنه يحمل الصدق المطلق/المطابقة التامة؛ ولذلك يصف الله ذاته في كتابه بالعديد من الصفات الدالة علىٰ ذلك، مثل: علام الغيوب، بكل شيء محيط، لا يعزب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض[4].

---

(١) - فالعالم الأخروي محكوم بعدة قوانين: «كالأبدية». يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: ٥٦]. وإن يوما واحدًا منه يعدل ألف سنة بالعد الدنيوي. يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٥]. وهو أيضا دار جزاء ووزن كل ما قام به الإنسان في دنياه. يقول تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. كل ذلك وغيره مخالف لمعهود الناس في دنياهم.

(٢) - يرىٰ إيزيتسو أن الإيمان بالبعث الأخروي كان من الأفكار السائدة زمن النزول .الله والإنسان في القرآن، ص. ١٥١ وما بعدها. وجوده يحمل علىٰ قانون البقية من الناس من أتباع الدين الإبراهيمي، ولا يحمل علىٰ قانون القاعدة العامة، ما دام أن القرآن قد أخذ عليهم إنكار ذلك بشدة.

(٣) - علاوة علىٰ ما سبق ذكره، تجد أيضًا تعصب الكثير ضد ما جاء به الرسول ﷺ. فضلًا عن أن المشركين رأوا في ذلك مجرد وسيلة يخدع بها محمد عليه الصلاة والسلام الناس للإيمان به.

(٤) - تأمل النصوص القرآنية الآتية: [البقرة: ٢٥٤، سبأ: ٣، التغابن: ١٨، الطلاق: ١٢].

٢- أن الإيمان بالآخرة بوصفها دار مقام وخلود وجزاء، يعكس أن العالم الدنيوي لم يخلق عبثًا أو سُدًى، وبانتهائه ينتهي كل شيء، فهذا يتنافىٰ مع منطق الحكمة الإلهية، وبإلغائه من الاعتبار الذهني أو العيني، يتولد لدىٰ الفرد «رؤية عدمية» تسلمه إلىٰ «الانغماس في الملذات»[١] اللامحدودة واللامحددة، وأحيانًا كثيرة علىٰ حساب الضعفاء. يقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وقوله أيضا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٥].

٣- أن الإيمان بالآخرة تقتضيه حاجة نفسية، إذ بموجب الظلم السائد في العمران البشري، فالمظلوم العاجز عن درء الظلم عن نفسه، يطمئن نفسيًا ما دام أنه ينتظر موعدًا يقتص فيه من الظالم مهما علا شأنه في الدنيا، وإنكاره يجعل الإنسان يعيش بين أمرين أحلاهما مُرٌّ. والإنسان إن ضاع أو سلب منه حقه في الدنيا فهو مضمون في الآخرة[٢]، من قبل من وصف نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. ولا شك أن ذلك يعكس وجهًا من أوجه العدل الإلهي[٣].

٤- أن الله تعالىٰ إذا كان قد خلق الإنسان وحده سبحانه[٤]، فإعادته بعد تحلله من جديد، يعد من الأمور الممكنة فعلًا والعقلية وقوعًا، ما دام أن الفعل الإلهي لا حدود لنهايته ولا لكيفياته. يقول الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]. وقوله أيضًا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ

---

(١) - الله الإنسان في القرآن، ص. ١٥٠.

(٢) - هذا لا يعني أن يكون الإنسان مستسلمًا وراضيًا بظلم من ظلمه، ولا يدافع عن حقه المشروع، بل يعني استحضار الإيمان بالآخرة مع عدم التمكن من الحق المشروع؛ نظرًا لاعتبارات ما، لا تولد عنفًا انفجاريا، في مجتمع يحكمه قانون من غلب حاز، والعصبية القبلية القاتلة، والمصلحة الفئوية الضيقة، إذ هذا من ملامح المجتمع الجاهلي اللاإنساني. تأمل قوله تعالىٰ. [النساء: ٩٦-٩٨].

(٣) - تأمل النصوص القرآنية الآتية. [النور: ٢٤]، [يس: ٦٤]، [فصلت: ١٩].

(٤) - ساد في المعهود الفكري أن دلالة مفهوم «الخلق» هي: إيجاد الشيء من كونه عدما إلىٰ كونه موجودًا. في حين إذا نظرت في النص الشرعي تجد أن الخلق دائمًا يكون «من شيء». تأمل النصوص القرآنية التالية: [النساء: ١] ، [النحل: ٤]، [الكف: ٣٦]، [الفرقان: ٥٤]. بناءً علىٰ ما سبق يمكن أن نصوغ دلالة مفهوم «الخلق» علىٰ الشكل التالي: إخراج الشيء من عالم الدوال إلىٰ عالم المدلولات. وسنعود لبسط هذه الفكرة أكثر لاحقًا.

ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]. وفي مقابل الخلق المقتضي للبعث يقول سبحانه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] (١). ويقول أيضًا: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

٥- الله تعالىٰ في القرآن يدعو إلىٰ السير في مشارق الارض ومغاربها، لاكتشاف قوانين الوجود الإنساني، كيف بدأ الله الخلق، وكيف هو الآن للتوصل إلىٰ ما سيكون عليه مستقبلًا(٢). تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: ١٨، ١٩].

بناءً علىٰ ما سبق تلاحظ أن الاستدلالات القرآنية، بقدر ما هي عقلية هي أيضًا موضوعية في الوقت نفسه(٣).

بعد هذا ننتقل إلىٰ ما كنا بصدده، وهو البرهنة النصية علىٰ كيف سيكون البعث الأخروي؟

---

(١) - يرىٰ ابن تيمية أن النص الشرعي القرآني يتضمن العديد من الأدلة المقتضية للبعث الأخروي المادي، ومنها: «أن تكوّن الحيوان من العناصر أولىٰ بالإمكان من تكوّن النار من الشجر الأخضر، فالقادر علىٰ أن يخلق من الشجر الأخضر نارًا أولىٰ بالقدرة أن يخلق من التراب حيوانًا، فإن هذا معتاد . . .». درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، ج١,، ص. ٣٤.

(٢) - من القوانين الحاكمة للمخلوقات الإلهية، أن لكل مخلوق قيامته وساعة نهايته، ما دام أنه عبارة عن طاقة، والطاقة مهما طالت مدتها فهي مستنفذة حتمًا، لذا قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. لذا يلاحظ أن الإنسان في مرحلة أرذل العمر ينقص ويقل لديه كل شيء من مكونات طاقته الذاتية.

(٣) - تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٢٣-٤٤].

المجموعة الأولىٰ من النصوص القرآنية، التي تتناول بعض حوارات العالم الأخروي، ونختار منها ما يلي:

أوَّلًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٥].

تستفاد من النص القرآني أمور منها، حسب ما نحن بصدد إقامة الدليل عليه:

١- القصة القرآنية سواء تعلقت بالزمن الماضي أو المستقبلي، تعكس أحداثًا واقعية، وقعت أو ستقع بالفعل كما جاء بذلك الخبر، وليست وهمية خيالية أبدًا، لذلك تجدها كما في النص القرآني، تعكس حقيقة إنسانية، وهي أن المُجرم(١) الذي خالف وحي الله تعالىٰ، يسعىٰ دومًا للتملص من مخالفته وتلفيقها لغيره، إلا أن الله تعالىٰ بعدله القائم علىٰ ما هو موضوعي، توفىٰ كل نفس ما كسبت، وما ربك بظلام للعبيد(٢).

٢- دار الآخرة من القصة القرآنية المستقبلية، تعد مرآة عاكسة للدنيا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ

---

(١) - المجرم في النص القرآني، هو من يجحد وينكر البعث الأخروي. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الرحمان: ٤٠-٤٢]. وقوله أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٣]. وقوله: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

(٢) - تأمل النصوص القرآنية الآتية: [الإسراء: ١٤]، [النور: ٢٤]، [يس: ٦٤]، [فصلت: ١٩، ٢٠].

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨، ٩]. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].

٣- النص القرآني لا يفصل بين دار الدنيا ودار الآخرة إلا بـ «زيارة المقابر»[١]، للدلالة علىٰ أن ما يلحق يشبه ما سبق، في جملة القوانين الحاكمة لحياة الإنسان.

ثانيًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٤٧-٥٢].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- يضيف الله تعالىٰ حقيقة إنسانية أخرىٰ علاوة علىٰ ما سبق، وهي أن ضمير الإنسان الواعي لما تصطف الأدلة الموضوعية أمامه، كأنها الشمس في ضحاها، لا يجد بدًا من الاعتراف بما قدمت يداه: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[٢].

٢- بعد أن يذوق أهل النار ألوانًا من العذاب، مما يجعل الحياة فيها مما لا يطاق، يتوسل الضعفاء من أهلها بسادتهم في الدنيا[٣]، فيأتي الجواب: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾. وبعد اليأس من تحقيق الرجاء،

---

(١) - يقول الله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

(٢) - يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

(٣) - تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١١، ١٢].

يتوسلون جميعًا إلىٰ خزنة جهنم، فيطلبون منهم أن يتوسلوا لهم عند «ربكم»، لإيجاد مخرج مما هم فيه، ولو كان مجرد تخفيف العذاب عنهم يومًا واحدًا، الذي يعدل ألف سنة مما تعدون. وبعد انتظار طويل، تأتي الرسالة التقريعية حاملة لما هم في حاجة إليهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝٥٠ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1].

٣- يلاحظ علىٰ توسل أهل النار بالملائكة: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾. ولم يقولوا: «ادعوا ربنا»، ما دام أن الرب سبحانه هو رب الناس والعالمين جميعًا؛ لأنهم قد أشربوا في قلوبهم الكفر والجحود، مما يدل علىٰ أن ما كان عليه الإنسان في الدنيا، هو ما سيكون عليه في الآخرة.

ثالثًا: يقول تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ [المدثر: ٣٨-٥٠].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- الإنسان مخلوق مفطور علىٰ حب التطلع ومعرفة أسباب النتائج، ففي النص لاحظ أهل الجنة أن أناسًا ممن قاسموهم الحياة في الدنيا، مصيرهم اليوم جهنم، وربما كانوا في ظنهم أنهم من الذين عملوا الصالحات، فبحثوا عن أسباب مصير هؤلاء المجرمين، فجاء اعتراف المجرم بما كسبت يداه، وهذا تأكيد أيضا للحقيقة الإنسانية السابقة الذكر.

٢- في النص القرآني الكريم تأكيد لحقيقة إيمانية، وهي كما سبقت الإشارة إليها، أن الدار الآخرة هي مرآة عاكسة للدار الدنيا، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، دون زيادة أو نقصان.

---

(١) - لقد تكرر اعترافهم في العديد من النصوص القرآنية، منها: [الأنعام: ١٣١، الملك: ٩].

٣- القرآن الحكيم لتقريب الحقائق يعتمد «**مبدأ التصوير الفني**»[١]. فقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، كنىٰ بالتذكرة عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ما دام أنه يحتوي علىٰ ما يذكر الإنسان، وكأن التذكرة مما يستقبله الإنسان أو يستدبره. وزيادة في التصوير، عُدَّ ما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام به، كأنه مما يرعب الإنسان، فلا يجد بُدًّا من الإعراض والابتعاد عنه كليًا ما أمكنه.

٤- المجرم الذي كان في الدنيا يكذب بأمور الآخرة، لما عاش أحداثها وفصولها، وكأنها رأي عين اليقين، تجده يتوسل بأي أحد يشفع له، أو يخفف عنه مما هو فيه من ألوان العذاب، الذي كان يكذب به في الدنيا قبلا، فما تنفعه شفاعة أحد من الشافعين[٢].

المجموعة الثانية من النصوص القرآنية التي تتناول بعضًا من صور التنعيم الأخروي لأهل الجنة:

أوَّلًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٠-٧٢][٣].

---

(١) - من الكتب الهامة التي اعتمدت ذلك في تحليل النص القرآني: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة. مصر، ط١٨,، ٢٠٠٦. مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت. لبنان، ط١٩٩٤,.

(٢) - الشفاعة من المواضيع التي كثر القيل والقال حولها؛ ذلك أن التنزيل الحكيم يحتوي نصوصًا تنفي الشفاعة عن أي مخلوق، وأخرىٰ تثبتها؛ مثال الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]. والأخرىٰ مثل قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٦]. وهذا التناقض الذي يبدو، يزال كما يرىٰ محمد شحرور، بأن الشفاعة في الآخرة لله وحده، ولكنها متعددة المظاهر، ومن مظاهرها أنه سبحانه يأذن للرسل والأنبياء بأن يشفعوا. السنة الرسولية والسنة النبوية، ص٤٤,-٤٥.

(٣) - انظر مشاهد القيامة في القرآن، ص. ١٧٠. تأمل قوله تعالىٰ أيضًا: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- أن الذين اتقوا ربهم في الدنيا سيكون جزاؤهم في الآخرة جنات يساقون إليها زُمرًا، جماعة تلوَ جماعة، والسعادة الحقة تغمرهم، في مواكب فخرية، حتىٰ إذا اقتربوا من مستقرهم الأبدي الأخير، وجدوا الجنة مفتحة أبوابها تنتظرهم بلهف لا نظير له، وما فيها مهيأ لاستقبالهم، ومن صور ذلك تحية الترحاب الملائكية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

٢- بعد الدخول إلىٰ الجنة التي وعدوا بها في الدنيا ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦]. ورأوا ذلك رأي العين، مطابقًا لما أخبروا به في الدنيا قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾. وهذا ما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٣- التصوير القرآني لا يعكس مجرد مشاهد خيالية وهمية، بل مشاهد واقعية تعكس حقيقة نفس الأمر، وهذا يدل علىٰ أن الأجواء الأخروية لا تكون إلا مادية، للإنسان روحًا وجسدًا. بدليل استخدام العديد من المفردات التي لا تدل إلا علىٰ ما هو مادي كالباب، الارض، الحق، صدق، الوعد، نتبوأ.

ثانيًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُؤِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ١٠-٢٧] (١).

---

(١) - يقول سيد قطب في مستهل تحليله لسورة الواقعة: «هوْل الساعة هنا مادي من النوع الذي سبق في القارعة ...». مشاهد القيامة في القرآن، ص. ١٢٦.

تستفاد من النص أمور منها:

١- الله تعالىٰ من خلال النص القرآني، يعتمد «**مبدأ ناظم التصوير الفني**» لتقريب المعاني الجديدة، ومن معالمه إضفاء الحركة الحسية علىٰ المشاهد، لكي تعكس ما هو مادي حقيقة.

٢- الله تعالىٰ من خلال النص القرآني أيضًا، لا يفصل عالم الدنيا عن عالم الآخرة، إلا من خلال قاعدة «**الجزاء من جنس العمل**»[(١)]، فإذا كانت أغلب أعمال الإنسان في دنياه مما هو مادي، فالجزاء الإلهي للإنسان في أخراه لن يكون إلا من جنسه.

٣- الجزاء الأخروي صوره وأبعاده غير محدودة ولا معلومة إلا نسبيًّا، ما دام أن الله تعالىٰ أعد للإنسان في أخراه، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، والقصد من هذا الترغيب والترهيب علىٰ حد سواء.

ثالثًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ١٥-٢٦].

---

(١) - من الأفكار المرجعية في النص القرآني، والتي تؤسس لشخصية الإنسان، أن جزاءه في الآخرة رهين جنس عمله في الدنيا. تأمل النصوص القرآنية الآتية:

- ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].
- ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].
- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].
- ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٧].

تستفاد من النص أمور منها:

١- الله تعالىٰ من خلال النص القرآني، يضفي حركة حسية علىٰ مشهد من مشاهد التنعيم الأخروي، لا لشيء إلا لجعلها تعكس حقيقة نفس الأمر كما هو، لا كما يتأوّله البعض.

٢- الله تعالىٰ من خلال النص القرآني أيضًا، يؤسس لكون الآخرة لا تعدوا أن تكون مرآة عاكسة لأعمال الإنسان في الدنيا، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فالإنسان لا يؤخذ بجريرة غيره إذ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، بل بما كسبت يداه، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2].

٣- إن دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الدنيا، تصدق أكثر في الآخرة، ما دام أن ما رغبوا الناس فيه أو رهبوهم منه، قد وقع كما أخبروا، فخبر الأنبياء والرسل صدق وحق في الوقت نفسه. يقول الله تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١].

المجموعة الثالثة من النصوص القرآنية التي تتناول بعضًا من صور التعذيب الأخروي لأهل النار:

أ- من صور التعذيب المادي:

أوّلًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٥][3].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- من الأفكار الأساسية في التنزيل الحكيم، تجد أن الله تعالىٰ دومًا يربط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، وجعل الأول مجال السعي والحركة والفعل،

---

(١) - يقول تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

(٢) - [الطور: ١٩]. وقوله أيضًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

(٣) - ذلك أن مركز الإحساس المادي هو الجلد. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

والثاني مجال الحصاد والجمع، وكأن الإنسان منذ وجوده إلىٰ الاستقرار الأخير، لمحة زمنية واحدة. تأمل قول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾. وقوله: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].

٢- للتدليل علىٰ مادية البعث الأخروي، جاء قوله تعالىٰ: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾. ولا يقال إن الله تعالىٰ استعمل مفردة «الذوق» وهو حاصل بوسائل قد تكون غير مادة. الجواب قد يكون هذا التعليل صحيح لو لم يرد قوله: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾. فهذا الاستعمال القرآني يدل علىٰ أن ذوق العذاب يكون ماديًا كالضرب بالآلة تمامًا[1].

ثانيًا: يقول سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٨].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- يصور الله تعالىٰ من خلال النص القرآني، مشهدًا من مشاهد الآخرة، والمتعلق بكيف يساق أهل النار إلىٰ النار بطريقة تعكس إذلالًا لا نظير له، حتىٰ إذا اقتربوا منها بمجموعاتهم المتوالية، وجدوها كما قال سبحانه: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢-١٤][2].

---

(١) - مفردة الذوق في التنزيل الحكيم وما انبثق عنها، لا تدل إلا علىٰ ما هو مادي. تأمل النصوص القرآنية الآتية:

- يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤١-٤٦].
- يقول أيضًا: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١].
- وقوله أيضًا: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].
- وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْۖ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [فصلت: ٤٩].

(٢) - في مقابل ذلك تأمل حال أهل الجنة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠-١٠٢].

٢- بعد أن ترىٰ خزنة جهنم حال هؤلاء تسألهم موبخة ومقرعة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ...﴾. فيأتي جواب المعترف بالذنب بعد فوات الأوان: ﴿بَلَىٰ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. لا تعني أبدًا أن هؤلاء قد خلقهم الله لجهنم، وأولئك خلقهم للجنة جبرًا وقهرًا، بل يعني أن هؤلاء حق عليهم العذاب نتيجة أعمالهم النابعة من اختيارهم الذاتي الحر، وإلا لما كان لاعترافهم أي معنىٰ[(١)].

ثالثًا: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المومنون: ١٠٤-١١٦].

تستفاد من النص القرآني أمور منها:

١- برهن النص القرآني أيضًا علىٰ فكرته الأساسية، وهي أن جزاء الآخرة يكون من جنس عمل الدنيا، وهو بذلك يهدف إلىٰ تأسيس فكرة سلوكية، المسؤولية والمحاسبة الذاتية، إذ كل شيء في آخرة الإنسان يكون بما عملت يداه، ولا يظلم ربك أحدًا. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٩][(٢)].

---

(١) - اعتراف المذنب بذنبه ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]. مع العلم أن الإنسان ميال إلىٰ إنكار ما اقترفت يداه، يدل علىٰ: أولًا: موضوعية الأدلة التي ولدت الاعتراف. ثانيًا: ارتكاب المذنب لذنبه، يدل علىٰ أنه عند ارتكابه الذنب كان حرًّا مختارًا.

(٢) - ذلك ضد ما يدعيه البعض من أن ما يقوم به الإنسان في دنياه، فالله تعالىٰ قد أجبره ويسره لذلك، من دون اختيار وإرادة من الإنسان، إذ كيف يسلب منه الاختيار والإرادة، ثم يحاسبه بعد ذلك حسابًا عسيرًا، لا شك أن هذا الادعاء مناف للعدل الإلهي. انظر دلالة مفهوم القدر في الصفحات السابقة من هذه الدراسة.

٢- المشهد الحواري الدائر بين الله تعالىٰ وأهل النار، يعكس في طياته حركة حسية، إذ ترىٰ أهل النار يسعون جاهدين لتغيير نتيجة أعمالهم ومستقر مثواهم الأخير؛ لأنهم قد رأوا ما كذبوا به في الدنيا رأي العين وذاقوا ألوانا منه، ومما يتوسلون به، أنهم يطلبون من الله تعالىٰ أن يعيدهم مرة أخرىٰ إلىٰ الدنيا ليلتزموا طاعته سبحانه، إلا أن سنة الله لم تجر بذلك. يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

٣- يبين النص القرآني أن من أسباب هلاك الإنسان في آخرته، أنك تجده ينشغل بأمور غيره؛ ذلك أنك تجد في تاريخ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أن الذين كفروا بهم يبذلون قصارىٰ جهدهم واجتهاداتهم لرد الذين آمنو بهم إلىٰ ما هم عليه، في حين كان الأجدر بهم أن يفكروا ليؤسسوا مواقف صحيحة ونافعة لهم قبل غيرهم. يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥] (١).

ب- من صور التعذيب الرمزي:

نذكر بعض النصوص القرآنية التي تشير إلىٰ بعض صور التعذيب الرمزي في الآخرة لأهل النار، ومنها:

أ- حياة بلا موت ولا توقف للعذاب: يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله أيضًا: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. وقوله أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٣].

---

(١) - ذلك لا يعني عدم الاهتمام بأمور الغير وتفقد أحواله، خصوصًا إذا كان محتاجًا، أو في ضيق من أمره، فتسديد الحاجة ودفع الضيق فرض كفاية، يتعين علىٰ الجميع ما داموا قادرين؛ ذلك أن الإسلام يهدف إلىٰ تأسيس اللحمة الجماعية، من خلال تأسيس المسؤولية الغيرية. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ب- لا يقبل منهم اعتذار ولا شفاعة شافع: يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]. وقوله أيضا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٧].

ج- تصب عليهم إهانات لا حصر لها: يقول تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المومنون: ١٠٨-١٠٩]. وقوله أيضا: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٣]. وقوله أيضًا: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤]. في مقابل ذلك تأمل النصوص الآتية، المتعلقة بأهل الجنة. يقول تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقوله أيضًا: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦]. وقوله سبحانه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٤، ٣٥].

لا شك أن هذا وذاك، من خلال هذه التصويرات القرآنية الفنية البديعة، لا يتعلق الأمر بما هو روحي، وإلا لما كانت هناك حاجة إلىٰ تلك التصويرات القرآنية، التي إن دلت علىٰ شيء، فإنما هو أن البعث سيكون ماديًا حقًا وحقيقة. فضلًا عمَّا ذكر، يحتوي نص التنزيل الحكيم، علىٰ جملة نصوص توحي أن آليات الحساب ستكون مادية، فكان البعث من جنسها، تأمل النصوص القرآنية الآتية:

أ- يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ب- وقوله أيضًا: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧، ٨]. [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤].

ج- وقوله عز من قائل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]

[الكهف: ٤٧، ٤٨]. إلىٰ غير ذلك من النصوص القرآنية التي لا تنتهي كثرة[١].

ومن الأدلة العقلية التي تنسجم مع النصوص القرآنية، للتدليل علىٰ أن البعث الأخروي لا يكون إلا ماديًا، سواء في جانب التنعيم أو التعذيب علىٰ حد سواء، نذكر:

١- النص الشرعي الصحيح الصريح، لا يعارض ولا يناقض العقل السليم، وكذلك العقل السليم[٢] لا يناقض النص الشرعي الصحيح الصريح، فما دام أن القرآن قد أخبر أن العالم الأخروي سيكون ماديًا كما سبق بيانه، فالعقل السليم في استطاعته أن يتعقل ذلك ويبرهن عليه أكثر، وهذا منطلق ينطلق منه[٣].

٢- المشركون في زمن النزول، أنكروا علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام جملة وتفصيلًا العالم الأخروي، وبالأولىٰ أن ينكروا مشاهده المادية، تهربًا كما يقول محمد عابد الجابري من «المسؤولية والمحاسبة الإلهية العادلة»[٤]، التي تخضع كل شيء مهما دق أو جل لميزان العدل الإلهي، فلو كان البعث الأخروي حسب زعم الجابري روحيًا فقط، لما عارضوه تلك المعارضة العنيفة الشرسة. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٦، ٧٧][٥].

---

(١) - لم نذكر النصوص الحديثية في المتن، علىٰ اعتبار أن النص الجابري لم يتوقف عندها، فجريناه علىٰ ذلك، لا أن النص الحديثي لم يشر إلىٰ ذلك ويؤكد عليه؛ سواء تعلق الأمر بالقبر وأحواله، أو البعث ومشاهده. انظر علىٰ سبيل المثال لا الحصر: الموطأ، ص. ١٧٧، .٦٢٣ اللؤلؤ والمرجان، ج٣,، ص. ٢٨٦-٢٩٩.

(٢) - ذلك أساس ننطلق منه، علىٰ اعتبار أن القرآن إذا أردت وصفه قلت فيه، أنه «كتاب عقلي فريد»، إذ تلاحظ أنه يخاطب مختلف مجالات ومراتب الإدراك العقلي، وهو ما برهن عليه حقيقة ابن تيمية في موسوعته: درء تعارض العقل والنقل. وهذا عكس ما يدعيه البعض من أن القرآن مجرد «كتاب خيالي أسطوري».

(٣) - لكن ذلك مشروط بشرط أساسي وهو: إذا كانت القوانين العقلية مستخرجة من النص القرآني ذاته، أما إذا جيء بها من خارجه فطبقت عليه أو قرأ بها كما يفعل الكثير من مقلدة الفكر الغربي المعاصر، فذلك أمرٌ آخر.

(٤) - فهم القرآن الحكيم، ج١,، ص. ١٨٤-١٨٥.

(٥) - تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

٣- المراحل الأولىٰ لزمن النزول، كان عليه الصلاة والسلام يركز علىٰ بناء أمور العقيدة الغيبية، كالإيمان باليوم الآخر[١]، لذلك تلاحظ أن التنزيل الحكيم يحتوي وفرة هائلة من النصوص التي تتناول موضوع أمور المعاد ومشاهد الآخرة، حتىٰ إنها تصورها وكأن الإنسان يتابع مراحلها وفصولها من الأول إلىٰ الآخر؛ وذلك يدل حقيقة علىٰ شيء واحد، هو مادية العالم الأخروي، كما هي مادية العالم الدنيوي، إلا أن القوانين والسنن الإلهية الحاكمة تختلف حسب طبيعة العالم، فالعالم الدنيوي، كان الإنسان فيه أمير نفسه ورهين اختياره الحر النابع من ذاته، أما في العالم الآخر، فجزاءه رهين اختياره في الدنيا. يقول تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

٤- المؤمن والمجرم في دنياهما يكابدان من المشاق حسب المعتقد المختار، فالمؤمن في اختياره الإيمان بالآخرة اقتضىٰ ذلك أعمالًا، وكذلك المجرم سواء بسواء. فلو كان البعث الأخروي؛ روحيًا لاستوىٰ في ذلك معًا المؤمن والمجرم، وهذا ضد قانون العدل الإلهي، الذي لا يكون بين الناس فحسب، بل بين مختلف المخلوقات الإلهية. يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

٥- السبب الذي جعل محمد عابد الجابري يعتبر أن البعث الأخروي يكون روحيًا فقط، هو أن فكرة البعث الأخروي المادي، لم تكن من معهود العرب الفكري والثقافي في زمن النزول[٢]، وهذا التصور بقدر ما هو مخالف للمنهج، مخالف أيضًا لخصوصية النص القرآني. فأما كونه مخالفًا للمنهج؛ فلأن البعث الأخروي جملة وتفصيلًا كان مرفوضًا من قبل المشركين، فما الذي جعل الجابري يقبله روحيًا ويرفضه ماديًا! وأما كونه مخالفًا لخصوصية النص القرآني؛

---

(١) - يضم نص التنزيل الحكيم كما يرىٰ الجابري العديد من السور القرآنية، من سورة القارعة (٢٨) إلىٰ سورة القمر (٣٧)، حسب الترتيب الذي اختاره الجابري، التي تؤسس للإيمان بالآخرة، بالانطلاق من عدة مرتكزات سنقف عليها في فصل القصة القرآنية. فهم القرآن الحكيم، ج١، ص. ١٣١ وما بعدها.

(٢) - مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص. ١٧٥.

فلأن القرآن ليس خطابًا للعرب زمن النزول فقط، بل هو للناس في كل زمان ومكان إلىٰ ما شاء الله تعالىٰ، مهما تعددت وتنوعت أنظمتهم المعرفية، وإلا لما كان نصًا عالميًا وخاتمًا[1]، هذه الأولىٰ. أما الثانية، فالقرآن لا يفهم في ضوء أي مرجعية مهما كانت نوعيتها، حتىٰ ولو كان اللسان العربي المتداول زمن النزول، إذ ما ينسجم مع خصوصية كتاب الله تعالىٰ، هو أن يقرأ القرآن من خلال القرآن فقط، ما دام أن «القرآن يفسر بعضه بعضًا».

بناءً علىٰ ما سبق يمكن القول: إن البعث الأخروي لا يكون إلا ماديًا، إلا أن ماديته خاضعة لقوانين إلهية محددة، منها ما أخبرنا الله تعالىٰ بها في محكم تنزيله، ومنها ما هي في رحم الغيب يكشف عينًا في حينه[2].

---

(١) - انظر النصوص القرآنية الآتية: [الأعراف: ١٥٨] [سبأ: ٢٨].

(٢) - يرىٰ ابن رشد الحفيد [ت٥٩٥؟] وفق تقسيمه الثلاثي للمدارك العقلية -أهل الخطابة، أهل الجدل، أهل البرهان-، أن أمر المعاد يعد الإيمان بوجوده من العقائد الإيمانية التي لا يجوز الاختلاف في وجوده، ومن أنكر عد كافرًا. أما تأويل صفة وجوده، فالمخطئ معذور والمصيب مشكور أو مأجور. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق. محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة. مصر، ط٣,، ١٩٩٩، ص. ٤٩ وما بعدها. بناءً علىٰ ما سلف، يكون محمد عابد الجابري مقلدًا للنسق الرشدي؛ ذلك أن الجابري يقر بوجود أمر المعاد، ويتأول صفة المعاد بما هو روحي فقط. والتقسيم الرشدي أعلاه جاء من أجل تبرئة ساحة الفلاسفة من تكفير أبي حامد الغزالي [ت٥٠٥هـ]، الذي يعتبر أن أمر المعاد تعين أن يحمل علىٰ ما هو مادي، ومن أنكر صفته تلك عد كافرًا. يقول الغزالي: «وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذي ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعًا، إذ لا برهان علىٰ استحالة رد الأرواح إلىٰ الأجساد، فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة ...». فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. مصر، ط١,، ٢٠٠٤، ص. .٣٩ وعليه؛ يوجد في تاريخ الفكر الإسلامي أهل العقل والتأويل والبرهان وقاعدتهم: أن العقل يبحث في كل موجود، وفي صفة وجوده. وأهل النص والتوقف، وقاعدتهم: أن العقل لا يبحث في الغيبيات وصفاتها، ومن رام أن يزن الغيب بميزان العقل، كمن هو رام أن يزن الجبال بميزان الذهب. وهذا ما سنعمل علىٰ بسطه أكثر في الملاحظة التكميلية الآتية الأولىٰ.

قد أثار زمرة من الباحثين المعاصرين، كمحمد شحرور وعدنان الرفاعي؛ إشكالًا منهجيًا-معرفيًا مفاده: إذا كان الله في محكم تنزيله يصف الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وقوله أيضًا: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي =

. . . . . .

= وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأحقاف: ٨]. والرسول ﷺ قد صدرت عنه العديد من الأحاديث التي تخبر عن مغيبات لم ترد في التنزيل الحكيم، مثل التعذيب أو التنعيم في القبر... والسؤال هو: ما العمل؟ يرىٰ كل من محمد شحرور وعدنان الرفاعي، أن كل خبر غيبي ورد في الحديث النبوي، ولم ترد في التنزيل الحكيم أي إشارة له، يرفض جملة وتفصيلا؛ ذلك أن مهمة الرسول ﷺ هي بيان التنزيل. [النحل: ٤٤-٦٤]. انظر: السنة الرسولية والسنة النبوية، ص. ٧١ وما بعدها. وفي ضوء ما سلف، دعا عدنان الرفاعي إلىٰ ضرورة معايرة الأحاديث النبوية بميزان واحد متفق عليه بين سائر المذاهب الإسلامية، إنه القرآن الحكيم. ولا شك أن هذا التوجه سيؤدي إلىٰ رفض العديد من الأحاديث النبوية. وهذا ما جعل «مقلدة المتقدمين» بتعبير طه عبد الرحمن (روح الحداثة المدخل إلىٰ تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١,، ٢٠٠٦، ص١١,). يرفضون بشدة مذهب القراءات الجديدة للقرآن. وحججهم في ذلك أوهن من أن تذكر، وكأن الزمن ساكن لا يتحرك، وكأن منهجية ضبط الأحاديث وتصحيحها اكتملت مع الأقدمين، ولم يعد بالإمكان إضافة شيء؟! وتجدهم بعد رفض المذهب الجديد في القراءة، يتمسكون بأحد الإمكانيات التفسيرية للقرآن، وهو إمكان القدامىٰ، وكأنه إمكان قد استنفذ النص كليا وهيهات! وبديلهم تخريجات لا برهان قاطع عليها، مثل أن الرسول ﷺ، يمكن أن تصدر عنه أحاديث لمضامين لم ترد في القرآن، ما دام أنها تؤسس لما هو جديد لم يرد في القرآن، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]. كما أسس ذلك الشافعي في الرسالة، ص١١٠,-١٣١. وخطأ الشافعي كما يرىٰ محمد شحرور، أنه انطلق من الترادف بين «القول والنطق»، في حين أن القائل هو الله تعالىٰ، بوصفه صاحب الكلام الحقيقي، أما النطق فهو ترديد الرسول ﷺ لقول الله تعالىٰ. السنة الرسولية والسنة النبوية، ص. ٥٦. أما بالنسبة لسؤال منكر ونكير، والتعذيب والتنعيم في القبر، فقد اعتبر ذلك محمد عابد الجابري من «الموروث الثقافي السابق علىٰ الإسلام»، إذ لا يوجد في القرآن الحكيم نص يشير إلىٰ ذلك. فهم القرآن الحكيم، ج٢,، ص. ٢٩٣ - ج٣,، ص. ٦٠-٦١. وهذه المنهجية في الفهم موجودة عند كل من محمد شحرور ومحمد أركون ونصر حامد أبو زيد. فمحمد شحرور يرىٰ أن الغيبيات الواردة في الأحاديث النبوية، مرفوضة لسببين: القرآن ينفي صحتها، والتقدم العلمي والمعرفي يناقضها أيضًا، وقد مثل لذلك بالعديد من الأمثلة، نذكر منها مثالًا واحدًا، ما أخرجه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام يقول: «**يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما علىٰ الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة**». يعلق: فهذا الحديث في شقه الثاني يناقض قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. أما الأحاديث المتعلقة بعذاب القبر، فيرىٰ أنها تناقض التنزيل الحكيم، وترتبط بالخرافات التي كانت سائدة في الحضارات السائدة قبل الإسلام. السنة الرسولية والسنة النبوية، ص. ٧٢ وما بعدها. وأما محمد أركون فيرىٰ أن الغيبيات عمومًا الواردة في النص الديني، هي مجرد «خرافات أسطورية»، مرتبطة بالفكر الأسطوري السائد في منطقة الشرق الأوسط. الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة. هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط٢,، ١٩٩٦، ص. ١٨٩-١٩٠.

. . . . . .

= وعليه؛ فإن الأمر يعد مما تكافأت فيه الأدلة عند هؤلاء، ومما نخرج به من النقاش أعلاه، أن كل ما أثبته القرآن، والصورة التي أثبته بها، فهو ثابت حقًا وحقيقة. وكل ما أثبته الرسول ﷺ، وبالصورة التي أثبته بها، فهو ثابت حقًا وحقيقة، شرط ألَّا يكون ذلك مناقضًا للقرآن، ولا للحقائق الثابتة؛ سواء كانت تاريخية أو علمية، وتكون أيضًا النسبة صحيحة.

ثانيا: ملاحظات تكميلية-تطويرية

١- ما معنىٰ أن يكون المرء عقلانيًا

خُلِقَ الإنسان من قبل خالق واحد ووحيد، هو الله تعالىٰ صاحب الخلق المطلق؛ وأدلة ذلك لا تنتهي كثرة، والمخلوق لا يصلح حاله حالًا أو مآلًا، إلا في ضوء ما جاء عن الخالق سبحانه؛ لذلك أناط الله بالإنسان القيام بعدة مهمات في دنياه ليفلح في أخراه، وقد حواها التنزيل الحكيم. [البقرة: ٢٩]، [هود:٦٠]، [الذاريات: ٥٦]. ولفهمها الفهم الأمثل، وتنزيلها التنزيل الأقوم الحق: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. زوده الله تعالىٰ بإمكان عقلي قابل للتفاعل والتطوير باستمرار، إلا أن مجال تحركه في الغالب هو عالم الشهادة الذي تحكمه قوانين من جنسه، وكلما تعرف عليها الإنسان طور وجوده الحضاري الشهودي[١]. أما الوحي؛ القرآن وما صح من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيتضمن أمرًا لا يستطيع العقل ضبطه بالانطلاق مما عهده، ذلك هو «مجال الغيب والآخرة»[٢]. من أجل ذلك أخبر الله تعالىٰ في محكم التنزيل، بذلك العالم وقرّبه للمتلقي باستعمال التصويرات الفنية والصور الحسية. والسؤال الذي يطرح في هذا السياق، هو: **هل العقل فعلًا عاجز عن إدراك العالم الأخروي، ويتعين عليه بالتبع، التسليم بذلك دون بحث أو طلب أو تعليل عقلي، أو يؤوله علىٰ نحْو**

---

(١) - القوانين التي وضعها الله في الكون، كلما اكتشفها الإنسان بعلمه إلا حولها لصالحه.

(٢) - كل من رام أن يزن أمور أخراه بأمور دنياه تاه وضل، درءًا لذلك عرفنا الله ﷻ بأمور المعاد والآخرة في محكم التنزيل.

من الأنحاء التأويلية، ليكون مستساغًا عقليًا، أو يرفضه بدعوىٰ كونه أسطوريًا خرافيًا، لا علاقة له بالعقل؟

إن البحث في العلاقة بين الخبر الغيبي والعقل، يستلزم أول الأمر أن نبين ما المقصود بطرفي العلاقة، ثم بعد ذلك نوع العلاقة التي يتعين أن تكون بينهما. فأما الخبر الغيبي فهو جملة النصوص القرآنية وكذا الحديثية الثابتة، التي تتناول أمر المعاد ومشاهد الآخرة بتصوير فني بديع لتقريبها للمتلقي. وكنا قد توقفنا عند بعض النصوص القرآنية فيما سبق، وكانت فذلكة التأمل، أن تلك النصوص تعكس نفس حقيقة الأمر كما هو. أما العقل كما هو معروف، فيتحدد حسب المرجعية المنطلق منها، وكذا حسب نوع المرحلة الزمكانية ونظامها المعرفي السائد[1]. لكن نحن في هذا السياق سنبحث في كيف يبني القرآن دلالته لمفهوم العقل[2]، للرد علىٰ من يزعم بأن القرآن لا عقل فيه، والدين لا منطق فيه، إذ المؤمن يتعين عليه التسليم القلبي دون التعليل العقلي[3]. والبناء القرآني الفريد يتأسس علىٰ:

أوّلًا: القرآن ينظر إلىٰ العقل من منظار كونه فعلًا لا ذاتًا؛ لذا تلاحظ أنه يستخدم الفعل كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. أو يستخدم بعض وظائفه، كقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٨]. وقوله أيضًا: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. وقوله سبحانه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. ولا تراه يستخدم لفظ «العقل».

---

(١) - ذلك ما حاول بيانه ميشيل فوكو في كتابه: الكلمات والأشياء، ترجمة. مطاع مفيدي، سالم يفوت وغيرهما، مركز الإنماء القومي، بيروت. لبنان، ط١٩٨٩-١٩٩٠.

(٢) - ترقب دراستنا: القرآن ودلالات المفاهيم القرآنية.

(٣) - بين بول ريكور، أن الفلسفة بقدر ما هي نقد، هي أيضًا اعتقاد، وكذلك الاعتقاد الديني، بقدر ما هو اعتقاد، هو أيضًا انتقاد داخلي أيضًا. الانتقاد والاعتقاد، ترجمة. حسن العمراني، دار توبقال، الدار البيضاء. المغرب، ط١,، ٢٠١١، ص. ٥٧.

ثانيًا: العقل بوصفه فعلًا[1]، فهو ليس ثابتًا، بل هو متعدد المراتب والنسب، بالنظر إلىٰ كثرة وتعداد النظر[2]، لذا فهو يوصف في التنزيل الحكيم مرة باللب، كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٤]. ومرة أخرىٰ بالنهىٰ، كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طـــــه: ٥٢، ٥٣]. فالتنزيل الحكيم يهدف إلىٰ تأسيس أن من لا يستخدم عقله فيما يحقق له النفع والفلاح، ويدفع عنه الضرر والخسران في الدنيا والآخرة، لا عقل له. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] [الأعراف: ١٧٩].

ثالثًا: النص القرآني سواء تعلق بالخبر أو الأمر والنهي... كله خطاب إلىٰ الإنسان، وبالتحديد البعد العقلي في الإنسان. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وقوله أيضًا: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦]. ومن هذه الزاوية، يستحيل أن تجد من بين مشمولات النص القرآني، أو ما صح من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ما يناقض العقل،

---

(١) - من بين من اكتشف العقل بوصفه فعلًا ابن تيمية، يقول: «العقل صفة وهو الذي يسمىٰ عرضًا قائمًا بالعاقل». مجموع الفتاوىٰ، جمع وترتيب. عبد الرحمن بن محمد القاسم، مكتبة المعارف، الرباط. المغرب، ب.ت، ج٩,، ص.٢٨٦, درء التعارض، ج١,، .٢٢٢ وهذا الأساس يعد من بين الأسس التي بنىٰ عليها طه عبد الرحمن مشروعه الفلسفي الحداثي. يقول: «وإذا ثبت أن العقل ليس جوهرًا... وإنما هو فعل من الأفعال أو وصف من الأوصاف... ثبتت معهما الدعاوىٰ الآتية: إن العقل قد يُحَسّن وقد يقبِّح، كما تحسن وتقبح الأفعال والأوصاف. إن العقل يقوم علىٰ مبدأ التحول الذي تقول عليه الأفعال والأوصاف...». العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط٤,، ٢٠٠٦، ص. ٢٠-.٢١ وكذا سؤال العمل، ص. ٥٥-١١٠.

(٢) - من هذه الزاوية، حث التنزيل الحكيم علىٰ استخدام العقل في مجمل الآيات المحيطة بالإنسان. تأمل النصوص الآتية: [الذاريات: ٢٠-٢١]. [الروم: ٧].

أو ما يناقض بعضه بعضًا[1]، إذ ما دام أن النص القرآني خطاب إلىٰ مطلق الجنس الإنساني، وإلىٰ العقل بالتحديد، فيستحيل أن يتضمن ذلك[2]. وإن زعم أحد بوجوده، فذلك راجع إلىٰ قلة وسطحية تدَبُّره لا أقل ولا أكثر. يقول أحد مؤسسي العقل والعقلانية، ابن تيمية [٧٢٨هـ]: «فمن تبحر في المعقولات، وميز بين الشبهات والبينات، ثبت له أن العقل الصريح أعظم الأشياء موافقة لما جاء به الرسول ﷺ وأخبر به. وكلما عظمت معرفة الرجل، عظمت موافقته لما جاء به الرسول ﷺ. . . إن العقل كلما أمعن في التحقيق كان أوفق للشرع الذي جاء به الرسول عليه السلام»[3].

رابعًا: العقل يعد ملكة إدراكية من بين ملكات إدراكية عديدة لدىٰ الإنسان، وكل ملكة إدراكية إنسانية إلا ولها مجالها، وما دون وفوق طورها أيضًا[4]؛ وباحترام ذلك تؤيد وتسدد خطوات العقل، ويُبتعد عن اتباع الهوىٰ وتأليه العقل وما يصدر عنه، كما حدث ويحدث في التاريخ الإنساني.

خامسًا: الإبداعات العقلية مهما تجردت، فهي تعد في الغالب نسبية متجددة ومتغيرة، بتغير السياقات والوضعيات المستجدة. أما القول بأنها ثابتة ومتعالية، كما يدعي مقلدة المتقدمين والمتأخرين علىٰ حد سواء، فإن ذلك من شأن أن يقتل الإبداع، أو علىٰ الأقل يضيق آفاقه، ويكرس ويشرع للتقليد من بابه

---

(١) - من المعروف أن قانون النسخ المتبع عند دعاته، يوحي بالتناقض في النص الشرعي. تأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١].

(٢) - وإلا عد من الكتب التاريخية القومية، وهو حتمًا ليس كذلك: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ١-٣].

(٣) - درء تعارض العقل والنقل، ج٥، ٣١٤.

(٤) - تأمل قوله تعالىٰ. [الأعراف: ١٤٣]. يقول عبد الرحمن بن خلدون [ت٨٠٨؟]: «وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هدانا الشارع إلىٰ مدْرك، فينبغي أن نقدمه علىٰ مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتقد اعتقادًا وعلمًا، ونسكت عمّا لم نفهم من ذلك ونفوضه إلىٰ الشارع ونعزل العقل عنه». المقدمة، دار الفكر، بيروت. لبنان، ط٢٠٠٤م، ص. ٤٩٣.

الواسع[1]، لذا تجد أن النص القرآني خطاب إلىٰ العقل الإنساني في كل زمكان، ليتجدد فهمه باستمرار، بالانطلاق من الأرضية المعرفية المعاصرة، وهذا من أهم دوافع تحقيق الإبداع. إذ لا إبداع من دون استخدام العقل[2].

أما نوع العلاقة الموجودة بين النص القرآني عمومًا، والنص الخبري علىٰ وجه التحديد وبين العقل كما تم بسطه أعلاه، يمكن إجمالها فيما يلي:

أوَّلًا: القرآن الحكيم وما صح من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، يستحيل أن يوجد من بينهما ما يناقض العقل السليم مناقضة صريحة تامة، وإن زعم زاعم بوجود ذلك فالخلل في العقل، لا في النص الشرعي الصحيح الصريح.

ثانيًا: العقل الإنساني مهما بلغ ارتقاؤه وعمقه في الإدراك، فهو محدود بسقف، ومن هذه الزاوية، فإن النص الشرعي يتضمن ما يعجز العقل عن إدراكه في ضوء ما عهده من قوانين ومعارف، لا بالنظر إلىٰ ذات المخبر عنه في القرآن والسنة[3].

ثالثًا: النص الشرعي بغير العقل لا يحقق شهادته الوجودية، إذ فهم وتنزيل أحكامه ومبادئه، كل ذلك رهين بالعقل. والعقل لا يسدد ولا يؤيد إلا بالنص الشرعي، إذ لو جرّد عن تسديد وتوجيه الوحي، لتحكمت فيه نوازع الهوىٰ وميولات الذات، وهذا لا يعني أن مجالهما مختلف، بل إن مجالهما واحد، فالواحد منهما بالنسبة إلىٰ الآخر «نور علىٰ نور»[4].

---

(١) - يقول ابن تيمية: «**ما عند هؤلاء مما يسمونه عقليات، هو في نفس الأمر تقليديات، قلدوا ما ليس بمعصوم**». درء التعارض، ج٥، ص. ٣١٦.

(٢) - الإبداع بأي معنىٰ أخذته، ومن أي زاوية نظرت إليه، لا يتحقق إلا بإعمال العقل، لذا أعطىٰ الإسلام للعقل مجالًا أرحب. ومما يدل عليه تعطيله انتشار ظاهرة الخرافات والأوهام في الذهنية العربية الإسلامية بشتىٰ أنواعها.

(٣) - يقول ابن تيمية: «**النص الشرعي الصحيح يخبر بمحارات العقول، لا بمحالات العقول**». نفسه، ج٥، ص. ٢٩٦-٢٩٧.

(٤) - العلاقة بين النص الشرعي عمومًا والخبري خصوصًا والعقل، علاقة تكامل، إلا أن المقدم في الاعتبار بالأصل الأول هو النص لا العقل. انظر نص ابن خلدون السابق. وكذا سؤال العمل، ص. ٥٥-١١٠.

رابعًا: من غير المنهجي أن نقابل بين الخبر الشرعي الغيبي وبين العقل، إذ كيف يستساغ أن نقارن بين ما هو إلهي مطلق، وما هو إنساني نسبي متحيز. ومن هذه الزاوية، تقف علىٰ العطب المنهجي الذي وقع فيه «**دعاة التوفيق**» بين الحكمة والشريعة قديمًا، و«**دعاة التوفيق**» بين العلم والدين حديثًا[1].

خامسًا: القول الذي يزعمه البعض، والقائم علىٰ أن الأخبار الغيبية الواردة في النص الشرعي تناقض العقل، وبالتبع تعين تأويل الغيبيات علىٰ نحو من الأنحاء التأويلية المقبولة عقليًا، لا شك أنه الزعم يتضمن أمورًا منها:

أ- أن الأدلة العقلية قائمة علىٰ القطع المبين، في حين أن الأدلة السمعية علىٰ الخبر الغيبي قائمة علىٰ مجرد الظن نظرًا لمقدماتها الظنية، ما دامت أنها تعتمد اللغة. وبالتبع، فهي لا تزود المتلقي بمراد المتكلم كما هو، إلا إذا تدخل توجيه المتلقي. ولا شك أن مثل هذا الزعم يطعن في مصداقية الخبر الغيبي.

ب- أن ما تم الإخبار به من قبل الله ورسوله، يعد خبرًا مجردًا، ليس بمؤيد بما يكفي من الأدلة والبراهين العقلية. والقول بهذا يعكس الجهل التام بخصوصية النص الشرعي؛ فأخبار القرآن مثلًا مؤيدة بما يكفي من الأدلة، التي لم يعهدها مقلدة المتقدمين والمتأخرين علىٰ حد سواء[2].

ج- أن الخبر الغيبي لا علاقة له بالعقل، لذا وجب التسليم الإيماني القلبي دون التعليل العقلي[3]، ولا شك أن هذا زعم يناقض المسلمة القرآنية التي

---

(١) - انظر نفسه، ص٨٨, وما بعدها. وكذا سؤال الأخلاق، ص١٤٩,-١٥٢.

(٢) - الخبر الغيبي في النص الشرعي كما يقول ابن تيمية: «مؤيد بأدلة عقلية برهانية، وغاية ما يقوله هؤلاء قد جاء القرآن بخلاصته علىٰ أحسن وجه». درء التعارض، ج١,، ص. ٢٨-٣٣.

(٣) - الإشكال الذي وقع فيه دعاة التناقض وتقديم العقل، هو أنهم وضعوا لأنفسهم قواعد عقلية، واعتبروها هي الأصل، ونظروا فيما جاء به النص الشرعي الخبري، فما وافق قواعدهم قبل، وما خالف إما رفضوه أو أولوه. درء التعارض، ج٥,، ص.٦, فضاعت من ثمة ماهية النص الشرعي الأصيلة؛ لأنهم نظروا إليه بواسطة أفكار مسبقة الصنع لا علاقة لها به في الغالب. والأدهىٰ من ذلك، أنك تجد كل فريق يسطر جملة أفكار يسميها قواعد عقلية، تختلف مع قواعد الفريق الآخر، كما حدث في علم الكلام القديم، وكذا في مجال علم التفسير؛ بحيث إنك تجد النص الشرعي الواحد محكم عند فريق، ومتشابه عند الآخر. وذلك يعكس غياب البحث الموضوعي في التنزيل الحكيم. ومن خلال هذه الدراسات المقدمة، نهدف إلىٰ تأسيس ذلك ما أمكن؛ حتىٰ ينطق القرآن بنفسه، والابتعاد عن أن ينطق عنه بالوكالة كما حدث ويحدث، وكأن النص القرآني رغم عالميته وإنسانيته، قاصر وليس راشدًا.

مفادها: أن مشمولات النص القرآني كلها خطاب إلىٰ العقل وحده دون سواه[1].

د- أن النص الخبري كلما خالف العقل، تعين أن يؤول حتىٰ ينسجم مع العقل، وكأنه حاكم علىٰ غيره، ومتعالٍ عن مطلق الظروف[2]!

وعليه فإن ذلك الزعم وأسسه وما يوحي به، يناقض بشكل صريح جلي خصوصية النص القرآني، التي هي المقدمة في الاعتبار علىٰ ما عداها.

بناء علىٰ ما سبق نخلص إلىٰ:

- أن النص الشرعي الخبري يستحيل أن يخبر بما يناقض العقل السليم، ما دام أن من عوائق التكليف اشتمال المكلف به علىٰ ما يناقض العقل.

- أن العقل إذا كان ينطلق من إيحاءات النص الشرعي، فيستحيل أن ينطوي علىٰ ما يناقضه تناقضًا تامًا، وإن وجد ذلك فيتعين تصحيح منطلقات العقل، لا الْعَدْو نحو تأويل النص الشرعي.

- إعمال العقل في الخبر الشرعي الغيبي، أمر محمود من شأنه أن يقوي العقيدة الإيمانية، ويعمق المدارك العقلية أيضًا، وإن عجز سلّم له. ولا ينبغي أن نمنع ذلك بدعوىٰ أن أحدًا أعمل عقله في ذلك، فأدىٰ به ذلك إلىٰ الحيرة والشك والإلحاد أو الكفر[3].

٢- ما معنىٰ أن يكون المرء قرآنيًا

كثر إطلاق وصف «القرآنيين» منذ عقود، أو تصنيف مجموعة من أهل الفكر تحت عنوان: «مدرسة القرآنيين»، وخصوصًا إذا كانوا ممن يتبنون القراءات الجديدة للتنزيل الحكيم، وقد صدر ذلك الوصف والتصنيف ممن يزعم أنه وحده «الوصي» علىٰ فكر أفراد الأمة، فيمنع هذا ويجيز ذاك[4]. والقصد بذلك

---

(١) - درء التعارض، ج١، ص. ٢١ وما بعدها.

(٢) - ما يبديه العقل من وجهات نظر، بقدر ما هي نسبية متغيرة ومتجددة باستمرار، هي أيضًا غير مقدسة ولا متعالية، ما دامت إنها إنتاج بشري. لذا كلما تاه العقل استنار بنور الوحي. المقدمة، ابن خلدون، ص. ٤٩٣.

(٣) - أو كما قيل: لا ينبغي أن نمنع الناس من شرب الماء؛ لأن أحدًا من الناس شرب الماء فشرق فمات.

(٤) - يوجد جمع من الناس لا هم لها، إلا التفسيق والتبديع والتكفير، والحكم علىٰ هذا بالجنة وعلىٰ الآخر بالنار، بدعاوىٰ متهافتة، فبدل أن يشتغلوا بما يفجر مكنونات النص الشرعي، ويسهم في =

الوصف، أن هؤلاء الزمرة يدعون من خلال ما يكتبون إلىٰ التمسك بالقرآن وحده، وترك ما سواه، وخصوصًا إذا كان ما أنتج حول القرآن مانعًا من الوصول إلىٰ النبع القرآني الأصيل، بعيدًا عن النزاعات المذهبية، والتوجهات التراثية[1]. ونحن في هذا السياق لا يهمنا تتبع نشوء الفكرة أو القائلين بها، بل ما يهمنا، هو أن ننظر فيما معنىٰ أن يكون الباحث قرآنيًا، وكذلك هل إطلاق الوصف علىٰ بعض أهل القراءات، أينطبق مع متونهم، أم لا يعدوا أن يكون وصفًا قدحيًا، الهدف منه تزهيد القراء في مثل تلك الأبحاث والدراسات؟

القرآن الحكيم بمنهجه الفريد قادرٌ علىٰ استيعاب المستجدات كلها في مختلف المجالات، إن لم يكن علىٰ سبيل التنصيص العيني الخاص، فعلىٰ سبيل التنصيص العام المجرد[2]. والقرآن بوصفه ذلك، جعل بعض المفكرين المعاصرين الملتزمين، يدعون إلىٰ الالتزام بالقرآن وحده دون سواه، ما دام أن كل ما عداه هو تراث تاريخي متحيز/ إنساني. أما القرآن فهو وإن أنزل في زمكان معين، إلا أنه بحامله ومحموله متعالٍ عن القوميات والظرفيات كلها، مهما كانت لصيقة به كأسباب النزول. فضلًا عن أنه هو الأصل الأول والوحيد، الذي انبثقت عنه المصادر الأخرىٰ كلها، فلولاه لما وجدت. وعليه؛ فإن وجد أي مضمون من أي جهة صدر يناقض القرآن، فهو مرفوض جملة وتفصيلًا، دون البحث في أي نحو من أنحاء التأويل، لجعل النص القرآني متناغمًا مع هذا المضمون أو ذاك، كما فعل ويفعل «دعاة التوفيق»[3]. أما إذا وجد ما يتناغم مع

= زحزحة واقع الأمة الإسلامية، تراهم مولعين بـ «عقلية التصنيف». وفي رأيي أن أهم أسباب انحطاط الفكر والوجود الإسلامي هؤلاء تاريخيًا.

(١) - يلاحظ علىٰ بعض الدراسات الإسلامية، أنها بدل أن تهتم باستخراج المنهج والفرادة القرآنية، ترىٰ أصحابها ينكبون علىٰ استخراج منهج وأصالة هذا المفسر أو ذاك. ومن المعروف أن التعلق بالفرع ينسي التعلق بالأصل.

(٢) - الرسالة، الشافعي، ص. ٥٨.

(٣) - دعاة التوفيق قديمًا وحديثًا بتوفيقهم، إن لم نكن بتلفيقهم، يساهمون من حيث لا يشعرون في مصادرة خصوصية النص الشرعي، وكأنها في نظرهم غير معتبرة! يقول سيد قطب: «منهجنا في استلهام القرآن ألا نواجهه بمقررات سابقة عليه... لقد جاء القرآن ابتداءً لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم». أضواء علىٰ معالم في الطريق، سالم البهنساوي، دار الوفا، المنصور. مصر، ط٢,، ١٩٩٩. ص. ٣٩، ٤٠.

القرآن من أي جهة صدر، فهو مقبول ومعمول به، حسب الحاجة إليه. ولا شك أن هذا المهيع لا يأباه العقل والمنهج السليم، وبهذا المعنىٰ يكون الباحث قرآنيًا، ولا ينكر عليه أحد في ذلك[1].

يبقىٰ الإشكال الأكبر يتعلق ليس بعلاقة التراث بالقرآن، بل بعلاقة السنة بالقرآن؛ بمعنىٰ هل القرآن فعلا بحاجة إلىٰ السنة، وما مقدار حاجته إليها؟ هذا هو الذي تباينت عند مقاربته الآراء. ونحاول أن نجمل بعض منها، ونرجئ التفصيل إلىٰ دراسة مستفيضة قادمة إن شاء الله تعالىٰ[2]، ويمكن تصنيف تلك المقاربات إلىٰ ما يلي:

أوَّلًا: المذهب التّراثي: يرىٰ أرباب هذا المذهب منذ التأسيس الشافعي [ت٢٠٤هـ] وإلىٰ اليوم، أن السنة النبوية هي «وحيٌ يوحَىٰ»[3]، وهي «الحكمة» المنصوص عليها في التنزيل الحكيم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: ٢/آل عمران: ١٦٤/البقرة: ١٨٢]. والقرآن لا يفهم حق الفهم إلا بالاستناد علىٰ السنة النبوية، إذ «**القرآن أحوج إلىٰ السنة، من السنة إلىٰ القرآن**»، لذا فإنها تقدم للقرآن عدة خدمات، منها: أنها تقيد مطلقه، تخصص عامَّه، تفسر مجمله، تبين مشكله، تنسخ أحكامه، وأخيرًا وليس آخرًا، أنها تنوب عنه؛ وذلك بأن تشرع أحكامًا جديدة لم ترد أبدًا في التنزيل الحكيم[4].

---

(١) - يرىٰ إدريس هاني أن السنة ليست كما حدد ذلك الأصوليون، بل هي كل ما طابق القرآن مطابقة مضمونية؛ سواء صدرت عن الرسول ﷺ، أو عن غيره. فالرسول ﷺ لم يبعث ليقدم لنا السنة جاهزة، بل بعث من أجل أن يزودنا بمفاتيح لتصير أقوالنا سنة. وعليه؛ فكل من استجاب للقرآن فهو سنة. الإسلام والحداثة، ص. ٣١٤.

(٢) - تحت عنوان: موقع السنة النبوية في القراءات الجديدة للقرآن الكريم.

(٣) - الرسالة، ص. ١١١. يرىٰ محمد شحرور، أن رأي الشافعي القائم علىٰ أن السنة هي وحي كالتنزيل الحكيم مرفوض؛ نظرًا لكونه لم يفرق بين القول والنطق. السنة الرسولية والسنة النبوية، ص. ٥٦.

(٤) - الرسالة، ص. ١٠١، ١١٥، ١١٩، ١٣٢، ١٨١. وأغلب تلك الأدوار تجدها مبثوثة في مختلف كتب علوم القرآن، لبيان حجية السنة.

ثانيًا: المذْهب التّاريخي: يرىٰ أرباب هذا المذهب القديم الحديث[1]، أن السنة النبوية وإن ثبتت عن النبي ﷺ، فهي لا تعدو أن تكون انعكاسًا لمرحلة تاريخية، أو لميولات مذهبية مسبقة الصنع. ونختار من بين القائلين بهذا المذهب، محمد عابد الجابري ومحمد أركون. فأما الجابري فيرىٰ أن وظيفة الحديث النبوي محددة في بيان ما في القرآن، وليس الإتيان بتشريع جديد أو إضافي. بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [**النحل**: ٤٤]. فالحديث إذا كان يندرج ضمن التشريع، وبالتحديد يتناول أمرًا من أمور العبادات، فلا يمكن الاستغناء عنه، أما إذا كان خارج ذلك فلا يقبل، إلا إذا شهد له القرآن بذلك؛ لأن الحديث النبوي منذ بدايات الصراع الأولىٰ في التاريخ الإسلامي، أواخر عهد عثمان بن عفان، بدأ في «التضخم بشكل مُهْوِلٍ»، مما جعل الجابري يقرر أن ليس كل ما نسب إلىٰ الرسول وثبتت صحته أنه صحيح، حتىٰ مع الأخذ بعين الاعتبار شروط الصحة عند المحدثين، إذ هي شروط تخص السند دون المتن[2]. لذا فإن محمد عابد الجابري لم يُولّ وجهه شطر الحديث النبوي في «تفسيره»[3]. وأما محمد أركون فيرىٰ أن السنة بوصفها مجموع النصوص المنسوبة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد عملت علىٰ «صهر عناصر مختلفة من التراثات المحلية الخاصة بالفئات الاجتماعية السائدة» وقت النزول، وهي بذلك «يصعب تحديدها وحصرها بدقة»؛ لكونها قد مورست

---

(١) - يرىٰ علال الفاسي [ت١٩٧٤م] أن البعض قديمًا عظم عليه إعطاء السنة النبوية المركز نفسه الذي أعطي للقرآن. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مطبعة الرسالة، الرباط. المغرب، ط٢,، ١٩٧٩، ص. ١٠٥. وقد يفهم من كلام علال الفاسي، أن من بين الأسباب التي جعلت الشافعي يؤلف رسالته، هي الرد علىٰ منكري السنة، وبيان أهميتها ودورها. نفسه، ص. ١٠٥ وما بعدها.

(٢) - يرىٰ إدريس هاني أن تركيز المحدثين في التصحيح والتضعيف علىٰ السند/ رواة الحديث، يعد أمرًا عاجزًا عن إدراك الحقيقة كما هي، إذ السند قائم علىٰ العدالة وهي أمر نسبي. مما أدىٰ الىٰ وجود مجموعة من المضامين الحديثية التي تخالف القرآن، كخبر الغرانيق... وللتدليل علىٰ ذلك أكثر، يأخذ علىٰ البخاري أنه أخرج في صحيحه ما رواه رأس الخوارج عمران بن حطان، الذي مدح قاتل علي بن أبي طالب، فهو علىٰ الأقل مجروح كما يقول. الإسلام والحداثة، ص. ٣٢٣ وما بعدها. وفكرة تركيز المحدثين علىٰ السند نجدها أيضا عند أحمد أمين، والمستشرقين كجولدزهير وغيرهما.

(٣) - مواقف، ع. ٦٩، ص٧, وما بعدها. الشبه الاستشراقية، ص. ٧٣.

عليها «عملية انتقاد مذهبية من أجل السيطرة علىٰ المشروعية الدينية/ السلطة العليا»، سلطة النص الشرعي. فأضحىٰ من ثمة ما دوّن في فترة متأخرة عن حياة الرسول ﷺ، وخصوصًا إبّان شدة الصراع السياسي أو المذهبي الطائفي، «**عبارة عن مدونات نصية رسمية مغلقة نهائية مطلقة**»[١].

وعليه؛ فإن دعوىٰ تراثية السنة أو تاريخيتها، ترتكز علىٰ:

* كون النصوص الحديثية قد حصل بها علىٰ مر التاريخ، تلاعب زيادة ونقصانًا، ويدل علىٰ ذلك طغيان المذهبيات وتأخر تدوين النص الحديثي[٢].

* كون النصوص الحديثية كلما بعُد الزمن عن القائل الحقيقي عليه الصلاة والسلام، إلا وتكاثرت بشكل لافت للنظر[٣].

* كون النصوص الحديثية تشتمل علىٰ العديد من النصوص التي بقدر ما تناقض القرآن، تناقض أيضًا العقل السليم والتاريخ.

ثالثًا: المذهب القرآني: إذا كان المذهب الأول قد حكّم جملة ضوابط بشرية لقبول الحديث أو رفضه، والمذهب الثاني قد حكّم المنطق التاريخي، فإن المذهب القرآني قد حكّم المنظار القرآني؛ بمعنىٰ أن النص الحديثي لا يقبل أو يرفض إلا بمقدار موافقته أو مناقضته للتنزيل الحكيم. بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [**النحل**: ٨٩] [٤]. وكذا للعقل، ما دام أن الخطاب القرآني خطاب إلىٰ العقل السليم الموضوعي والمنصف. ونختار من بين القائلين بهذا المذهب ما يلي:

---

(١) - تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص. ٢٠-٢٩٧. الهوامل والشوامل، ص. ١٦٨-١٧٠.

(٢) - زمن تدوين النص الحديثي فكرة خلافية بين أنصار النقد وإعادة النظر، وبين أنصار المذهب التراثي.

(٣) - تكاد تكون الفكرة أعلاه مسلمة عند كثير من المفكرين المعاصرين، فبعد محمد عابد الجابري ومحمد أركون ومحمد شحرور وعدنان الرفاعي وغيرهم. تجد أيضًا جورج طرابيشي، انظر: من إسلام القرآن إلىٰ إسلام الحديث، ص. ٤١٦-٤٣٨.

(٤) - لا يفهم النص القرآني أعلاه إلا في ضوء نصوص أخرىٰ مثل: النحل: ٤٤-٦٤.

أ- محمد شحرور: رفض تحديد الشافعي لمفهوم السنة، واعتبره قائمًا علىٰ أسس غير صحيحة[1]. في حين أن التعريف الأسلم للسنة النبوية، يقتضي تقسيمها إلىٰ قسمين: السنة الرسولية: وهي ما أنزلت علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، وحيًا من عند الله تعالىٰ، وتمثل منظومة القيم والشعائر ونظرية الحدود ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مجال الأسوة والقدوة والاتباع والطاعة المتصلة؛ سواء في حياته أو بعد موته، ما لم تتعارض مع التنزيل الحكيم، وأمثلة ذلك عديدة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**من صلىٰ صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج**». وقوله أيضًا: «**من غش فليس منا**»٢[2]. **والقسم الثاني: السنة النبوية: وتشمل القصص المحمدي[3]: وهو جزء من القصص القرآني، وهو نسبي، ولا تؤخذ منه إلا العبرة، وهو الجانب الإيماني من السيرة النبوية، أما كتب السيرة فهي الجانب التاريخي منها، وأيضًا اجتهادات النبي ﷺ الواردة فيما صح من الأحاديث النبوية، والتي مارس النبي ﷺ فيها أمور القيادة العسكرية، وتنظيم أمور المجتمع (كولي أمر)، والقضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كقائد اجتماعي)، وينطبق عليها تغير الأحكام بتغير الأزمان[4]، وهي ذات طابع اجتهادي تاريخي لا تحمل أي تشريع، وأمثلة ذلك عديدة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسافر امرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم». وأيضًا نهيه ﷺ يوم الفتح عن متعة النساء... فيؤخذ منها ما يتوافق مع التنزيل الحكيم لدراسته دراسة تاريخية، أما ما يتعارض فيرفض جملة وتفصيلا؛ ذلك أن المرجع الأساسي في الأخذ بالحديث أو رفضه هو التنزيل الحكيم[5].**

---

(١) - السنة الرسولية والسنة النبوية، ص. ٤٦ وما بعدها.

(٢) - نفسه، ص. ٩٣-٩٤-١٦٤.

(٣) - يرىٰ كثير من أرباب القراءات الجديدة للتنزيل الحكيم، كمحمد شحرور أن القرآن يتضمن العديد من النصوص والسور، هي مجرد قصص متعلق بحياة الرسول، لا تؤخذ منه الأحكام، بل فقط العبر، كسورة التوبة والأنفال والأحزاب ومحمد.

(٤) - السنة النبوية والسنة النبوية، ص. ٩٩-١٠٠.

(٥) - نفسه، ص. ١٤٨-١٦٦-١٧٢.

ب- جمال البنّا: يرىٰ أن من الأمور التي يتعين العودة إليها أولًا وقبل كل شيء، لتحقيق النهوض المنشود، «العودة إلىٰ القرآن»، إذ لاحظ عبر التاريخ الإسلامي، أنه قد تم تعطيل القرآن، ومن أبرز صور ذلك تجد أن ينسخ بعض المفسرين قرابة مائة وعشرين آية من غرر آيات القرآن، التي تأمر بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجه الناس للصفح والصبر[١]. ومن الأسباب التي أدت إلىٰ تعطيل القرآن، إيثار السنة علىٰ القرآن، إذ يرىٰ البعض أن الكتاب أحوج إلىٰ السنة من السنة إلىٰ الكتاب، وإن السنة قاضية علىٰ الكتاب[٢]. ومن المؤشرات الدالة علىٰ العودة إلىٰ القرآن فعلًا، أن يُهتَمَّ به من خلال إعادة فهمه فهمًا سليمًا، بعيدًا عن تلك الضوابط التي وضعها المفسرون القدامىٰ، إذ هي لا تؤدي إلىٰ فهمه موضوعيًا كما هو. وأهم ضابط تعين اعتباره وإعطاؤه الأولوية، العرض علىٰ القرآن فما وافقه قبل وإلا رفض من أي جهة صدر[٣].

وعليه؛ فإن الاعتماد علىٰ القرآن وحده دون سواه في التصحيح والتضعيف، والرفض والقبول، والفهم والتأويل، يبدو أنه منهج موضوعي وعلمي في الآن نفسه. أما من يعارض ذلك أو يرفضه بدعوىٰ الطعن في السنة النبوية، فتلك دعوىٰ تكذبها نصوص أرباب هذا المنهج؛ ذلك أن السنة لا يتسنىٰ رفضها إذا ثبتت صحتها بأي دعوىٰ[٤]. ويبقىٰ الإشكال بين أرباب المذهب التراثي والمذهب القرآني، هو: هل السنة النبوية بالإمكان أن تضيف تشريعًا لم يرد في القرآن لا تصريحًا ولا تلميحًا؟ وهذا ما سنبحثه بشكل مفصل في الدراسة القادمة: «**السنة النبوية في ميزان القراءات الجديدة**».

---

(١) - العودة إلىٰ القرآن، دار الشروق، القاهرة. مصر، ط١,، ٢٠٠٨، ص. ١٦-١٨.

(٢) - نفسه، ص. ٤٠-٤١.

(٣) - نفسه، ص. ٥٠-٥١.

(٤) - إذا كنا نقبل ما يتوافق مع خصوصية النص القرآني، وما ثبتت صحته من أي مصدر وفد. فقبلونا لما صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وعن صحابته، فذلك يكون من باب أولىٰ وأحرىٰ.